الباب الثالث

فرنسا والمغرب العربي

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

ظروف بلاء المغرب بفرنسا

إن ابتلاء سوريا ولبنان والحركة العربية فيها بفرنسا قد جاءت من حيث الفعل بعد ابتلاء المغرب العربي بها. ومن المؤسف أن الظروف التي ساعدت سوريا ولبنان والحركة العربية فيها على النجاة من بلائها لم تسنح بعد لهذا المغرب العزيز فظل الى الآن يقاسي الشدائد المريرة منه.

ولقد بليت سوريا ولبنان ببلائها عقب يقظة الروح القومية والحركة العربية وما كان من رجالها من نشاط وما بذلوه من جهود وقدموه من ضحايا قبيل الحرب العالمية الاولى؛ ثم نشبت هذه الحرب التي كانت مبادىء التحرير وحق الشعوب الضعيفة وحريتها والقضاء على الروح الاستعمارية وحق الفتح وسائل دعائية مهمة فيها. وقد قطع الحلفاء بلسان انكلترا للعرب الذين كانوا في حكم الدولة العثمانية عهوداً بالحرية والاستقلال، واشتركوا بسببها في الحرب المذكورة الى جانبهم، فكان هذا مما قوى موقف العرب في سوريا ولبنان وساعدهم على النجاة بعد محنة شديدة استغرقت أكثر من ربع قرن مع ذلك؛ فضلاً عن ما كان من ظروف دولية أخرى واتتهم أثناء الحرب العالمية الثانية على ما فصلناه في البابين الأولين من هذا الجزء؛ هذا في حين أن المغرب العربي قد ابتلي بفرنسا في تواريخ سابقة تيسر لها فيها توطيد قدمها فيه واختطاط سيرة من شأنها أن تجعل البلاء مزمناً مستعصيا.

قصة المغرب الاليمة

والحق إن قصة فرنسا في أقطار المغرب العربي أليمة جداً لانها تقص ما قاسته هذه البلاد من فرنسا باسلوب من شأنه أن تهلع له القلوب وتدمى له العيون وتقشعر منه الأبدان لفظاعته وقسوته بحيث يصح أن يقال إنّ ما قاسته سوريا ولبنان على شديد ما قاستاه ليس إلا ظلا لما قاساه ولا يزال يقاسيه ذلك الجزء الكبير من

الوطن العربي ؛ حتى إنه لا يكاد يصدق وقوعه في أشد أدوار الظلم والقسوة الهمجية التي يمكن أن تكون انعدمت فيها معاني الرحمة والانسانية والعدل والمنطق ؛ وبحيث يثير الاشفاق والرأفة في أشد القلوب قسوة ، ويبعث أشد العجب من موت الضمير العالمي وسكوته على هذه المآسي والجرائم التي تمثل منذ عشرات السنين على مسرح هذه البلاد الشهيدة التي هي في سرة أوروبا بل وتكاد تكون في صميم نطاقها ، مما يعد وصمة عار لا تمحي عن جبين الحضارة الغربية وممثليها ؛ وبحيث يزداد المرء يقيناً بخرافة تلازم مبادىء الحرية وحقوق الانسان لفرنسا وثورتها الكبرى تجاه أي بلد أو شعب آخر ، ويزداد نقمة على أولئك العرب الجغرافيين خاصة الذين لا يفتأون دون ما خجل يقررون هذا التلازم ويشيدون بإنسانية فرنسا وعدلها وحريتها ضلالا وتضليلاً بينما يكون وجهها الاستعماري الكالح الكريه بارزاً كل البروز وفي أشنع مناظره في جزء كبير من وطنهم العربي منذ عشرات السنين . ويزيد في غصة هذه القصة وبشاعتها أن الأقطار المغربية كانت متمتعة باستقلالها آخذة بالسير في طريق الامم التي سبقتها في مضمار الحضارة فتصدتها فرنسا بغياً وعدواناً بدافع الطمع والجشع والسلب والاستعمار ودون ما أي استفزاز ، واختطت فيها خطة رهيبة غايتها إلغاء المغرب العربي الاسلامي من الوجود إلغاءً واستبداله بمغرب افرنسي نصراني ، وسبيلها الافقار والتجهيل والقضاء على المقومات الدينية والقومية والاجتماعية ، وإثارة النعرة الجنسية والتقاليد الجاهلية في البربر الذين اندمجوا في العروبة والاسلام منذ الآماد الطويلة وأصبحوا والعرب يؤلفون الشعب المغربي العربي الاسلامي لأجل التفريق والتوهين ؛ وعدتها الارهاب والتنكيل والتبشير والقذف بشذاذ الآفاق من الافرنسيين العاطلين والمتبطلين الذين ضاقت بهم بلادهم وسبل عيشهم فيها واختصاصهم بخيرات البلاد وبركاتها وثرواتها من أرض وزراعة وصناعة وتجارة ومعادن على حساب اهلها وإعدادهم ليكونوا اليد المعوانة على تلك الخطة الرهيبة .

ولعمر الحق انه ليجب على السوريين واللبنانيين خاصة أن يضاعفوا شكرهم لله عز وجل الذي أنقذهم من الكابوس الافرنسي الذي لو مد له الأجل وغفلت عنه الهمم ولم تبهته الظروف القاهرة لكانت مآسيه الرهيبة التي يرسف فيها المغرب العربي

مقدرة عليهم ؛ وقد رأوا بوادرها الكريهة ، وخاصة اذا ذكروا ما كان يفكر فيه الافرنسيون من جلب عشرات الوف الاسر الافرنسية وتوطينها بين ربوعهم على ما جروا عليه هناك ؛ كما إنهم يجب عليهم أن ينتبهوا كل الانتباه وأن يحذروا كل الحذر ، لان تلك الروح الجشعة الشرهة المستعمرة ماتزال قائمة تحرق الأرض على سوريا ولبنان وتترقب الفرص السانحة للكرة عليها ، ولا تني في بث سمومهـــا ودعايتها بواسطة من اصطنعته منهم من المأجورين والضالين والمخدوعين .

كفاح المغرب ضد نكبته

ومن الحق ان يسجل أن المغرب العربي لم يقصر في مكافحة النكبة التي ابتلي بها ، بل جاهد وما يزال يجاهد أروع جهاد في سبيل حريته واستقلاله على ما كان من كيدله في إضعاف قوته وسلب وسائله ، وتفوق عدوه ؛ وضحى بأعظم التضحيات ، وكتب صفحات من نور في تاريخ البطولة والجهاد الوطني . وإذا كان المشرق العربي لم يكن على صلة وثيقة بذلك فمرد هذا إلى ما ضربته فرنسا على المغرب من ستار كثيف ، وما شغل هـذا المشرق من شواغل ونكبات قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها .

على أن من فضل الله على الحركة العربية أن التقصير المتبادل قد انتهى بما كان من التقاء المغرب والمشرق أثناء الحرب العالمية الثانية وبعـدها في ميدان واحد ، وتواصلها تواصلا من شأنه أن يشد من أسر هذه الحركة وحيويتها ، ويساعد على تحقيق أهدافها عاجلا أو آجلا على كل حال ؛ ولا سيما ان الروح في العالم كله آخذة بالتغير ، وإنها ضائقة حتما بفكرة التسلط على الشعوب الضعيفة واستعبادها وحرمانها من حريتها وحقها في الحياة الكريمة المستقلة .

الفصل الأول

فرنسا والجزائر

- ١ -

حالة الجزائر قبل النكبة

إن أول قطر ابتلي بفرنسا وصار الجسر الذي امتد عدوانها عليه الى تونس شرقاً ومراكش غرباً هو القطر الجزائري .

ولقد استولى الاسطول العثماني في أواسط القرن السادس عشر على هذا القطر بشيء من اليسر لما يجمع بين سكانه والدولة العثمانية من وحدة الدين ورابطة الخلافة الاسلامية العامة ، ولم يلبث أن قامت فيه حكومة تركية ارتبطت بالدولة المذكورة برباط خفيف من التابعية نظراً للبعد بينها وبين العاصمة وغدا مع الزمن إسمياً وفي نطاق شمول الخلافة التي تنسم بها هذه الدولة .

وهكذا كانت الجزائر مستقلة استقلالا تاما ، وكان رؤساء الدولة الذين يتلقبون بلقب « الداي » ينتمون الى العنصر التركي الذي استعرب وتأقلم ، وكان لها اسطول قوي بلغت سفنه المسلحة بأربعين مدفعاً (٧٢) والمسلحة بعشرين مدفعاً فما دون (١٤٠) ، وكان عدد جيش الاسطول ثلاثين الفا ، وكل هذا قبل الثورة الافرنسية أي في أواسط القرن الثامن عشر ، وكان للدولة بقوة هذا الاسطول صولة في البحر الابيض عادت عليها وعلى رعاياها بالثروات الطائلة .

وقد كانت الجزائر بخيراتها وثروتها وموقعها تحرك مطامع الدول الأوروبية البحرية ، وقد تحرش بها أكثر من دولة واكثر من مرة فلم تنل منها منالا .

ولقد انكسر الاسطول الاسباني مرة أمامها أشنع كسرة وغنم الجزائريون كل ما أتت الحملة الاسبانية الغازية به من سلاح وعتاد ومؤن ، وأعاد الاسبان الكرة فلقوا نفس المصير . ولقد قذفت أساطيل الدول الأوروبية مدينة الجزائر اكثر من مرة دون جدوى ، حيث كانت من أعظم مدن البحر المتوسط حصانة ان لم

تكن أحصنها ، وفيها من المدافع الضخمة ما يفوق في رميه وقوته مدافع تلك الاساطيل .

وفي إبّان ثورة فرنسا الكبرى وتألب الدول الأوروبية عليها مدت الجزائر يد العون اليها بالتموين ، حيث سمحت لها بشراء قمحها وأقرضتها بعض المال بدون فائدة برغم مساعي الانكليز في صدها عن ذلك ، كما بادرت الى امدادها بما امكنها من مواد ووسائل نقل ومواش ، مما جعل نابليون أيام عهد قنصليته يزجي شكر فرنسا الحار اليها ، وفي سنة ١٧٩٥ اعتدت سفينة اسبانية على سفينة افرنسية وأسرتها على مقربة من الجزائر فسير الداي بعض سفنه وفك أسر السفينة الافرنسية واسترد ما سلبه الاسبان منها. ولقد كانت الصلات ودية بين فرنسا والجزائر بحيث كان بعض رعايا هذه أيضاً يمدون يد المساعدة الى تلك إبان محنتها. ومن ذلك ما أقرضه جزائري يهودي لفرنسا من قروض عديدة بلغت عدة ملايين اشترت بها فرنسا القمح والمواد الغذائية الأخرى وكان ذلك بتشجيع الداي وكفالته ، وقد استغلت فرنسا هذه الصلات الودية فأنشأت مراكز تجارية في بعض الانحاء الساحلية كانت فيما بعد نقطة ارتكاز للبغي والعدوان !

- ٢ -

النكبة وظروفها العدوانية

ولقد عاملت فرنسا الجزائر كما يعامل الضيف اللئيم مضيفه حيث ثار شرهها وطمعها فيها بدلا من شكرها والاعتراف بجميلها . فلم ينته دور امبراطورية نابليون ، ويستأنف دور البوربونيين ثانية وتستريح فرنسا من شدائد المحنة التي انتابتها خلال اربعين عاماً حتى أخذت تبيت الغدر للجزائر لتستولي على ثرواتها وخيراتها وتكون لها مستعمرة ومستغلا ، فسلحت سراً بعض المراكز التجارية التي انشأتها ، واستسنحت فرصة انشغال بعض أقسام الأسطول الجزائري في الحرب العثمانية اليونانية التي استمدت الدولة العون فيها من الجزائر كما استمدته من محمد علي الكبير والي مصر ، فأصدرت تعليماتها لقنصلها بخلق فرصة مناسبة للعمل

وفي نيسان عام ١٨٢٧ خاطب الداي القنصل بلهجة حادة محتجاً على عدم اجابة حكومته على بعض مطالبه ورسائله فأجابه القنصل بإجابة جارحة أثارت غضبه وجعلته يضرب وجه القنصل بمروحته ويطرده من حضرته . فسارعت فرنسا الى إنذار الداي باعتذار لا يمكن ان يقبله فأعلنت عليه الحرب والحصار ، وأخذت تعد حملة كبيرة للغزو . وكانت السفن الجزائرية التي تحارب في مياه اليونان قد تحطمت مع ما تحطم من الاسطولين العثماني والمصري في واقعة نافارين ، فأضعفها ذلك أمام الحملة القوية التي أعدتها فرنسا وسيرتها في صيف عام ١٨٣٠ .

وكانت هذه الحملة مؤلفة من اسطول حربي عدد سفنه (١٠٣) مجهزة بنحو ثلاثة آلاف مدفع ، ومن جيش مقاتل عدته اربعون الفا ، وأسطول تجاري يحمل المؤن والعتاد مؤلف من نحو (٤٠٠) سفينة. وأنزل الافرنسيون قواهم في احدى النقاط الساحليه التي تبعد قليلا عن الجزائر وتحصنوا فيها وكانوا قد أعدوها لمثل هذه المناسبة من قبل .

ومن الجدير بالذكر أن الملك شارل العاشر ودع الحملة بخطبة صليبية دلت على الروح التي كانت تحفز فرنسا الى البغي جاء فيها فيما جاء « ان العمل الذي ستقوم به الحملة ترضية للشرف الافرنسي سيكون بمساعدة العلي القدير لفائدة المسيحية كلها» وقد كان مثل هذه الروح من جملة الحوافز ونقاط الارتكاز الاستغلالية في صلة فرنسا بلبنان وسوريا ومطامعها فيهما على ما ذكرناه في البابين السابقين ...

نجاح الغزوة الافرنسية

ولقد ظن الداي ان نزول الافرنسيين في النقطة التي نزلوا فيها ييسر له حصارهم وإبادتهم وكان واثقاً من قدرته على ذلك بما استطاع أن يجمعه من جموع فاقت بعددها جموع العدو كثيرا. ودارت رحى معركة عنيفة في تاريخ ١٩ حزيران ١٨٣٠ كادت الدائرة تدور على الافرنسيين فعلا ، غير أن تفوق القيادة الافرنسية على القيادة الجزائرية ضيع على الجزائريين فرصة الموقف الذي لم يلبث أن انقلب ضدهم، فاستطاع الافرنسيون أن يستولوا على المعسكر وما فيه وأن يحطموا خط الدفاع

الأول ، وأن يتقدموا نحو العاصمة ويحاصروا قلعتها ويضيقوا الخناق عليها بالرغم من المحاولات التي حاولها الجزائريون للكرة . ولقد دافعوا عن القلعة حتى نفد ما عندهم من عتاد وهلك القسم الاكبر من المدافعين ، وحينئذ أشعلوا النار في مخزن البارود فانفجر وانهدك البرج حتى لا يستولي عليه الافرنسيون سليما ، ثم تحرج الموقف فطلب الأهالون من الداي مفاوضة الافرنسيين على الصلح فأبى هؤلاء إلا الاستسلام المطلق لان الغزوة لم تكن تهدف الى ما تهدف اليه حرب بين دولتين وإنما كانت تهدف الى سلب واستعمار ، فتقدم بعض أعيان المدينة موافقين على تسليم العاصمة وانتهاء حكم الدولة الحسينية (نسبة للداي حسين) .

معاهدة التسليم

وعقدت معاهدة بذلك كان من نصوصها تخيير الداي في مغادرة البلاد بأمواله أو البقاء فيها في حراسة فرنسا ، والتعهد باحترام حرية الجزائريين الدينية والمدنية وعدم التعرض لأموالهم وتجارتهم وصناعاتهم وبالرغم من ذلك فان الافرنسيين لم يتورعوا حينما دخلوا العاصمة من إعمال السلب والنهب وانتهاك الحرمات مما اضطر كثيراً من السكان الى مغادرة المدينة والفرار الى داخل البلاد .

ولقد وجد الافرنسيون في خزانة الدولة ومخازنها نحو خمسة وعشرين مليوناً من الفرنكات ذهبا وأربعة وعشرين مليوناً فضة وما قيمته سبعة ملايين من السلع فاستولوا عليها غنيمة باردة .

وقد غادر الداي بلاده مع اسرته وحاشيته الى ايطاليا ومن هنا أخذ يتصل بأنصاره للانقضاض على الغزاة وقام فعلا ببعض المحاولات أكثر من مرة ولكنه أخفق فاضطر الى نفض يده والانتقال الى الاسكندرية حيث استقر فيها الى أن مات عام ١٨٣٨ .

- ٣ -

التصرفات الباغية اثر الاستسلام

ولقد كان تصرف الغزاة في حملتهم الباغية سيئاً كل السوء وحشياً كل الوحشية لم يرعوا فيه عهداً ولا ذمة ولا شرفا ، ولم يستشعروا فيه بأي عاطفة من عواطف

الرحمة والرأفة والانسانية والدين مما كان مثار دهشة ونقد من قبل لجنة عينها الملك عقب احتلال العاصمة أي في تموز عام ١٨٣٣ لتفقد الاحوال وتنوير الحكومة في البلاد المفتوحة . فقد احتوى تقرير هذه اللجنة فضائح يندى لها الجبين ، ومظالم تقشعر لهولها الجلود لم يكن يستهدف بها إلا الارهاب والاخضاع والسلب ، ولم يكن لها من موجب ، لأن البلاد قد استسلمت للغزاة حسب طلبهم ووفقاً لمعاهدة وعدوا بها برعاية تقاليد اهلها وحقوقهم . وهذه مقاطع مما احتواه التقرير(١) :

« لو يقف الانسان لحظة متأملاً الطريقة التي عامل بها الاحتلال سكان البلاد لرأى أن سيره لم يكن مخالفاً للعدالة فقط بل كان يخالف العقل ايضا ، حيث أننا على حساب استسلام شريف وعلى حساب أبسط حقوق الشعوب الطبيعية قد تجاهلنا كل المصالح فلم نراع حرمة العادات والأرواح ، وأضفنا الى ملكية الدولة أملاك المؤسسات الدينية وصادرنا املاك طبقة من السكان وعدناها باحترام حقوقها واستولينا بالظلم والضغط والجور على الأملاك الخاصة الشخصية دون أي مقابل ثم أجبرنا المالكين الذين جردناهم بتلك الطريقة على دفع نفقات تدمير منازلهم فيها بل نفقات تدمير مسجدهم ! ولقد أرسلنا الى ساحات التعذيب والتنكيل والاعدام لمجرد الشك رجالاً لم نثبت إدانتهم ولم نجر محاكمتهم ، وقتلنا رجالاً يحملون جوازات المرور ، وذبحنا جماعات من السكان بصورة إجماعية لمجرد الشك ثم ظهرت براءتهم ، وقدمنا للمحاكم رجالا مشهورين بسمعتهم الطيبة في البلاد لأن شجاعتهم جعلتهم يأتون الينا ويقفون امام غطرستنا متوسلين لانقاذ مواطنيهم المساكين . وقد وجد منا قضاة لم يتورعوا عن محاكمتهم ورجال لم يحجموا عن تنفيذ حكم الاعدام فيهم . ولقد ألقينا في غياهب السجون الانفرادية المظلمة رؤساء القبائل بالرغم مما قدمته قبائلهم لنا من ملاجىء ومؤن . لقد أطلقنا على الخيانة والغدر اسم المفاوضة وجعلنا منها كميناً للغدر والتقتيل . وبكلمة موجزة لقد تجاوزنا بربرية البرابرة الذين جئنا لتمدينهم ثم ظللنا نشكو إخفاقنا فيهم . »

ولقد أثار هذا التصرف نائباً افرنسياً حراً اسمه دي شاد فوقف في مجلس النواب الافرنسي في نيسان عام ١٨٣٤ يندد به ويذكر بعض مشاهده وقد قال فيما قال : لقد هدمنا في الجزائر تسعمئة بيت دون اتخاذ أي إجراء ودفع اي

(١) من كتاب القضية الجزائرية لدوريان و. م لويف

تعويض واستولينا على سنين مسجداً وهدمنا منها عشرة وحوّلنا بعضها الى كنائس ودسنا المقابر وبعثرنا الرفات في بلد شديد التمسك بدينه. ولقد كانت مدينة الجزائر قبل الاحتلال محاطة بالحدائق والقصور الجميلة الفخمة وكانت ضواحيها تماثل ضواحي مرسيليا في بهجة المناظر ، ولكن كل ذلك قد زال بعد أن اجتيحت حيث خربت سواقيها وقنواتها ودمرت البيوت والقصور واتخذت سقفها حطباً واقتلعت الأشجار وجعلت وقودا . .

ولقد احتوى تقرير مفصل لقنصل افرنسي وصفاً مروعاً لبعض ما كان في مذبحة أوقعها جيش الاحتلال في نيسان عـــام ١٨٣٢ في منطقة الولايقة لمجرد شكه في اختطاف افراد ينتسبون الى قبيلة موالية حيث قال إن الحملة فاجأت القبيلة عنـد بزوغ الشمس فذبحت كل افرادها دون أن يستطيع أي منهم دفاعاً وقضت عـلى كل حي دون تمييز بين شاب وشيخ وامرأة ورجل وعاد الجنود حاملين رؤوس الضحايا على رماحهم . أما الأغنام التي وجدوها في ساحة المأساة فقد بيعت لقنصل الدانيمارك ، وأما بقية الغنيمة وهي مسلوبات المذبوحين فقد عرضت للبيع في سوق عام حيث تشاهد أساور النساء في المعاصم المبتورة التي ظلت الأكف الدامية عالقة بها وحيث تشاهد أقراط النساء وبقايا اللحم متدلية منها. وبعد توزيع حصيلة السلب بين الذابحين صدر بلاغ يومي يوم ٨ نيسان ١٨٣٢ يبارك هذا العار حيث يعرب عن مدى الرضا البالغ الذي شعر به الجنرال إزاء الحزم والكفاءة التي أظهرها جنوده البواسل . .

- ٤ -

مقاومة اهل البلاد

على أن أهل القطر لم يستسلموا باستسلام العاصمة ، وازداد نفورهم من التصرفات الوحشية التي أخذت اخبارها الرهيبة تنتشر فتملأ القلوب رعبا ، وأخذت كل ناحية من أنحاء القطر تستعد للدفاع وتحصّن مواقعها وتنظم وسائل مقاومتها ، غير أنها لم تتحد تحت قيادة واحدة. فكان هذا من أسباب إخفاقها حيث تمكن الافرنسيون من القضاء على مقاومة النواحي واحدة بعد اخرى بالمكر والدس والقوة الغاشمة معاً.

جهاد الامير عبد القادر

وكان أهم الحركات النضالية ضد الافرنسيين حركة الامير عبد القادر . فقد اجتمع رؤساء القبائل في الأنحاء الغربية فبايعوه بيعة شرعية بالأمارة وعاهدوه على السمع والطاعة وكان ذلك عام ١٨٣٢ ، فأنشأ دولة في هذه الأنحاء وأخذ يستعد للنضال ؛ وقد جنح القائد الافرنسي الى مسالمته ريثما يتمكن من الأنحاء الاخرى فاعترف بأمارته . ولقد أهاج هذا باريس وحملها على استبدال القائد وزودت الجديد بالمدد والأمر المحتم بالقضاء على دولة الأمير الفتية ، غير أن الحملة فشلت فشلاً ذريعاً وانتصر الامير عليها وأوقع فيها جسيم الخسائر، فسيرت عليه حملة اخرى نجحت في احتلال عاصمة الامير « المعسكر » وإحدى مدن أمارته الكبرى « تلمسان » . وكان الامير جنح الى حرب الكر والفر دون معركة كبيرة ، وظل كذلك يزعج الافرنسيين الى أن اضطروا الى التعاهد معه عام ١٨٣٧ والاعتراف بأمارته في مقاطعة وهران مقابل اعترافه بسلطتهم على مقاطعة الجزائر وغيرها مما دخل في حوزتهم . وسنحت للامير بذلك فترة سلم تفرغ فيها لتنظيم دولته وتدريب جنده والاستعداد للطوارىء . وكان الافرنسيون مشغولين في هذه الفترة في إخضاع المقاطعات التي لم تكن قد خضعت لهم بعد .

نهاية الامير

فلما تم لهم ذلك التفتوا الى الامير ليصفوا الحساب معه ، وأخذت تدور بين الفريقين حروب ومعارك عديدة، والتزم الامير طريقة الكر والفر وعمد الافرنسيون الى الدس والاغراء ونجحوا في تخذيل بعض القبائل عنه ، وحاول الامير ان يجد في الارض المراكشية ملجأ للاستجمام والتنظيم فأنذر الافرنسيون سلطانها فاضطر هذا الى منع الامير من اتخاذ بلاده قاعدة لحركاته مع الالم والحسرة، ومع كل هذا وبالرغم من تضييق الافرنسيين الخناق عليه واستيلائهم على مخيماته وأسرهم بعض

اسرته وعدداً كبيراً من خلص انصاره ومصادرتهم لأمواله ظـــل يصول ويجول ويكر ويفر حتى انتهكت منه القوى وفقد القدرة على الاستمرار ولم يبق له مناص فاستسلم عام ١٨٤٧ حيث بقي في أسر فرنسا الى عام ١٨٥٢ ، ثم غادرها الى البلاد العثمانية واستقر في دمشق حيث توفي فيها .

وحشية الافرنسيين في سياق حرب الامير

ولقد كان الجنرال سان أرنود احد قواد الحملات الافرنسية يبعث لأخ له في فرنسا رسائل خلال سنتي ١٨٣٨ - ١٨٥١ احتوى بعضها مشاهد عديدة لما كان من تصرف هذه الحملات اثناء حروبها مع الامير والمقاطعات التي لم ترد أن تضع رقابها تحت أقدام الغزاة تدل على أن ذلك التصرف الوحشي الرهيب الذي وقع في مدينة الجزائر وضواحيها اثناء الحملة الأولى وعقبها قد ظل مستمراً في هذه الحملات بنفس الروح والهدف وهمـــا الارهاب والسلب ودون أن يستشعر في ذلك بأي عاطفة من عواطف الانسانية والعرف والرحمة والشرف . فقد جاء في رسالة له بتاريخ ٧ ماوس ١٨٤١ بعد غزو مدينة قسطنطينة « إنّ الحرب لم تبق حياً لأننا لا نأسر أسرى . ولقد بدأ الجنود السلب ثم تبعهم فيه الضباط وانتهى اكبر سهم مـــن المسلوبات والغنائم الى ايدي القائمين على الجيش وضباط قيادته العليا وهو ما يحدث دائماً. اننا ندمر كل المدن ونجتاح كل املاك الامير. وسوف يجد الجيش الافرنسي في كل مكان وبيده اللهيب . وفي رسالة بتاريخ ٥ نيسان ١٨٤٢ : نحن الآن في جهات مليله وسرشال نحرق كل الخيام وكل القرى وندمر كل المغاور.. وفي رسالة في ٧ نيسان ١٨٤٢ : ان بلاد بني نصر جميلة جداً وهي أغنى بلاد رأيتها في أفريقيا الشمالية . لقد حرقناها كلها ودمرناها تدميراً..وفي رسالة بتاريخ ٥ مايس ١٨٤٢: اننا قلما ندخل في معارك ونحـن دائبون عـلى نهب المساكن وتدميرها.وفي رسالة بتاريخ ٥ تشرين الاول ١٨٤٢ : ها أنا محاط من كل الجهات بالسنة النيران التي أشعلتها في القرى والبيوت بعد تفريغ ما فيها من مخزونات لقد جاء بعض اهلها الى الاستسلام فرفضت لاني اريد استسلاما شاملا وها أنا ذا مستمر في التحريق . وفي

سارلة ٢ تشرين الثاني ١٨٤٢ : ذهبت الى جيمو وأشعلت النار في كل مكان في طريقي وحرقت هذه القرية الجميلة . وكان الجنرال بيجو قد غادرنا قبل الى مثل مهمتي. وكانت النيران تشتعل فوق الجبال وكنت اشاهد ألوفا من الجثث المتراصة على بعضها وهي تلقى في النار . انها جثث بني نصر التي حرقنا قراها ومساكنها . وفي بلاغ ارسله هذا الجنرال السفاح الى قائد فصيل له يقول : ان كل القبائل والسكان الذين لا يقبلون شروطنا يجب ان يسحقوا وان نستولي على كل اموالهم واملاكهم وأن يبادوا دون تميز بين ذكر وانثى ، بل يجب ان لا ينبت النبات حيث وضع الجيش الافرنسي قدمه .. وفي احدى الرسائل التي أرسلها قائد هذا الفصيل الى جنراله : ان النساء والاطفال المختفين وراء الاشجار كانوا يستسلمون لنا ونحن نقتل وندبح واصوات المحتضرين والمولولين تختلط بأصوات الحيوانات التي تجأر بجانبهم .. وفي رسالة له ثانية : اننا نبقي بعض النساء اللاتي نستولي عليهن ونبادل بعضهن بالخيول ونبيع بعضهن بالمزاد .

وفي كتاب صيد الانسان الذي نشره الكونت دي هيس سيون وردت مذكرة لضابط من ضباط الحملة جاء فيها: اننا حملنا برميلاً مملوءاً بالآذان المصلومة من الاسرى ، وان عدد ما قضينا عليه منهم برصاص البنادق وطعنات الحراب أكثر من أن يحصى . ومن بين هؤلاء اشخاص دلونا على مخازن للقمح وجدناها فارغة . أما المدن والقرى التي احتللناها فقد كانت محرّقة منهوبة . وقد اتلفت جميع مخزوناتها كما دمر نخيلها وأشجار مشمشها . وقد تم هذا دون اطلاق رصاصة واحدة في معركة .

ولقد كان من الفظائع التي ارتكبت بأمر من الجنرال روفنو وبامر الجنرال روفنو إبادة قبيلتي شميلة وأولاد ريا خنقاً بالدخان بالرغم عن إعلانها الرغبة في الاستسلام .

خطة الاستعمار وهدم الكيان

ومُذ لاحت للافرنسيين بشائر نجاح حركتهم الباغية في الجزائر اختطوا خطة جعل هذا القطر مستعمرة إفرنسية محرومة من أي لون من الوان الحكم الوطني . فأنشأوا إدارة مدنية لتنظيم مصالح الحكومة تحت إمرة القيادة العسكرية . وكان من أول ما فعلوه وضع اليد على املاك ضباط وجنود الجيش الجزائري وأراضيهم في السهول الخصبة المحيطة بمدينة الجزائر وإقطاعها للمستعمرين الأفرنسيين الذين صحبوا الحملة. ثم أخذوا يشجعون غيرهم على الهجرة إلى الجزائر ويقطعونهم الأراضي مجاناً أو يهيئون لهم شراءها بأبخس الأثمان. وكان شعارهم الفتح بالسيف والمحراث معاً وكان كل مستعمر يعد جندياً رديفاً فيسلم له السلاح والارض ووسائل العمل معاً ، فلم تنته مقاومة الأمير عبد القادر عام ١٨٤٧ حتى كان عدد المستعمرين مئة وعشرين الفاً ! وقد سنت السلطات قوانين للخدمة الاجبارية توجب العمل الاجباري على الجزائريين في كل مشروع عام تعلنه ، وبالاجرة التي تقدرها تحت طائل العقوبة على الممتنعين ، واعتبرت العمل في مزارع المستعمرين من المشاريع العامة فيسرت بذلك لهؤلاء بالاضافة الى الأرض المجانية اليد العاملة الرخيصة والتحكم بأجوريهم تحكم السادة بالعبيد .

التجارب الفاشلة والثورات

وفي السنة التالية لاستسلام الامير قررت الجمعية الوطنيه الافرنسية إعتبار الجزائر أرضا إفرنسية وتطبيق شرائع فرنسا عليها ولكنها لم تمنح الحقوق السياسية إلا للافرنسيين المستعمرين فقط ، وهو ما لا يمكن أن يدخل في منطق غير منطق الاستعمار الافرنسي الذي اختط خطته الرهيبة . فالجزائر إفرنسية ولكن الجزائريين غير إفرنسيين . وهذا يعني أن قرار الجمعية هو جعل الجزائر ملكاً للشعب الافرنسي أرضاً وسكاناً !! وقد ظل الجزائريون بعد هذا القرار تحت

كابوس الحكم العسكري الارهابي ، مما كان يثير القبائل حيناً بعد حين ، حيث ثارت قبائل الجرجرة ثم قبائل أولاد سيدي الشيخ واستمرت ثورتهم مدة طويلة كلفت الافرنسيين كثيراً من الجهد والخسائر .

ولقد جنح الامبراطور نابوليون الثالث إلى التنفيس عن العرب وتهدئة خواطرهم أثناء ثورات القبائل العنيفة ، فأعلن أنه إمبراطور العرب كما هو امبراطور الافرنسيين ، وأن العرب يجب أن يلقوا العدل والمساواة أسوة بهؤلاء ، وأصدر بعض الاوامر والتشريعات التي تتسق مع هذا الاعلان وتؤدي إلى قيام حكومات محلية وطنية ، فثارت ثائرة المستعمرين ورجال السلطة الافرنسية في الجزائر ، وأقاموا في سبيل تحقيق عزيمة الامبراطور العراقيل . وكان أن اشتبكت الحرب بين فرنسا والمانيا عام ١٨٧٠ وأن سقطت الامبراطورية وقام عهد الجمهورية الثانية ، ورأت هذه أن تكون الجزائر دار هجرة وإستعمار للنازحين عن الالزاس واللورين فكان في كل هذا القضاء على تلك البادرة التنفيسية ، وأخذ سيل المهاجرين يتدفق على الجزائر فيقطعون الاراضي ويمنحون ما يحتاجون اليه من وسائل العمل مجاناً ، حتى لقد أنشيء بين سنى ١٨٧٥ - ١٨٨٠ نحو مئتي مستعمرة ، وتجاوز عدد المستعمرين عام ١٨٨١ نصف المليون .

قانون الارهاب

وفي سنة ١٨٨١ قامت ثورة جديدة في جنوب وهران وبلاد الزاب أزعجت الافرنسيين أيما إزعاج ، غير أنهم قمعوها في النهاية واستولوا على اراضي الثوار وأخذوا يمنحونها للمستعمرين الوافدين . ثم سنوا قانوناً جزائياً ارهابياً اسمه « الانديجين » أناطوا الحكم به بالحكام الاداريين بحيث يستطيع هؤلاء أن يحكموا بالسجن لمدة خمس سنين على كل من يتفوه بما لا يليق في حق فرنسا وحكومتها ، أو لا ينفذ أمر الحراسة او يتهاون فيه ، أو يتمنع عن تسليم وسائل النقل والمونة والماء والوقود بالتسعيرة التي يضعها الحكام ، أو يسهو عن قيد المواليد والوفيات ، أو لا يحترم القرارات الادارية في قسمة الارض المشاع ، أو يتأخر عن دفع الضرائب أو عن الاجابة الى دعوة المراقبين الافرنسيين ، أو يؤوي شخصاً من غير أهل

منطقته ،أو يسكن في مكان غير مكان اقامته بدون إذن،أو لايسجل قدومه ومغادرته بلداً ليست بلده ، او يزور مقاما من مقامات الاولياء أو يقيم له نذراً بدون اذن، أوينشيء مسجداً او زاوية او مدرسة بدون اذن ، او لايساعد السلطات الادارية في أي شيء تطلبه منه الخ فكان هذا القانون سيفاً مصلتاً وكابوساً مفزعاً قاسى منه العرب الشدائد والمحن وسيطر الافرنسيون في ظله على مختلف مرافق البلاد .

- ٦ -

الحكم المدني بعد الحكم العسكري

وفي اواخر القرن التاسع عشر انتهى عهد القيادة العسكرية بعد ان دام نحو ٦٠ عاماً ، وقام مقامه حكم مدني افرنسي ، وغدا اسم « فرنسا الافريقية » يطلق على الجزائر ، وصار يمثلها في البرلمان نواب وشيوخ ينتخبهم المستعمرون فقط استمراراً للجاري، والغيما بدىء بانشائه في عهد الامبراطورية الثالثة من حكومات محلية ، وجعلت الجزائر ثلاث مناطق افرنسية ، وغـــدت الوزارة الافرنسية مصدر الحكم والسلطات بطريق الوالي العام الذي يمثلها كما غدا التشريع الجزائري يصدر عن البرلمان الافرنسي ، وظل اهل البلاد في منأى عن كل ما يتصل ببلادهم من تمثيل وحكم وتشريع مع تسميتها بافريقية الافرنسية وغدوها منطقة افرنسية وتطبيق الشرائع الافرنسية عليهم فيها .

وفي سنة ١٩٠١ أعلنت فرنسا فصل الدين عن الدولة فأدى هذا الى ضبط كافة الاوقاف الاسلامية التي كانت تقوم بأود المساجد ورجال الدين والقضاء الاسلامي، وادخلت ضمن املاك الدولة ، وانيطت ادارة المساجد والقضاء الشرعي بمصلحة افرنسية ، وابيح منح الاراضي الواقفية للمستعمرين بأثمان بخسة جداً ولآجال طويـــلة الأمـــد .

وعلى ان فرنسا عادت فرأت أن الفرق الشاسع والتباين الكبير بين سكان فرنسا والجزائر وحالتيها الاجتماعية والثقافية أشد مـــن أن تسمح بحكم الجزائر حكما افرنسيا مماثلا لفرنسا في التشريع والادارة .

نظام الدومنيون وسخره

فقررت عـــام ١٩٠١ ان تجرب فيها نظام الدومينيون البريطاني ، فانشىء للجزائر برلمان محلي كما انشىء فيها مصالح وسلطات محلية متنوعة ، وجعل للحاكم الافرنسي العام مجلس خاص من سكان الجزائر الافرنسيين والعرب . غير ان التجربة كانت تقليداً مسيخاً لم تؤد الى نتيجة صالحة ، لان الافرنسيين لم يستطيعوا ان يهضموا فكرة التخفيف من السيطرة على كل شيء ، والتخلي عن شيء مـــن الصلف ، او يفهموا حق شعب الجزائر في بلاده . وظل الوالي العام الافرنسي هو القابض على زمام الامور صغيرها وكبيرها ، ويتلقى الاوامر مباشرة مـن وزير الداخلية ، وظل مع هذا عدد غير يسير من دوائر الحكومة المهمة كالجيش والبحرية والمعارف والموازنة تابعة للوزارة الافرنسية رأساً ، وظل اكثر الوظائف الحكومية المهم منها والثانوي في يد الافرنسيين ، ولم يكن لسكان الجزائر وخاصة العرب المسلمين الذين هم الاكثرية العظمى اي كيان واثر ايجابي في هذا النظام الذي كان مفروضاً أنه انشىء لهم ، وكانت غالبية المجلس الخاص والبرلمان المحلي اللذين اشرك فيهما الجزائريون افرنسية مع اعتبار قراراته استشارية .

التجنيد الاجباري

وفي عام ١٩١٢ فرضت فرنسا الجندية الاجبارية على المسلمين ، وكان القانون يقضي بخدمة الجزائري المسلم ضعف المدة التي يقضيها الافرنسي دون ان يكون بينهما اي مساواة في المرتبات والمراتب والمعاملة ، فحمل هذا خاصة مع ما كان من اضطهاد وحرمان شديدين كثيراً من المسلمين على النزوح عن وطنهم الى بلاد الشام وغيرها من البلاد الاسلامية .

- ٧ -

ونشبت الحرب العالمية الأولى فأعلنت الأحكام العسكرية في الجزائر وأصلت سيف الارهاب فوق الرؤوس أشدما كان قبلها على شدته وقد جند من الجزائريين

ربع مليون جندي ومئة الف عامـــل أرسلوا الى جبهات اوروبا ومعسكراتها ، وزيدت الضرائب وطرحت التكاليف التموينية الباهظة على الأهلين وحظر عليهم الاجتماعات والتنقلات وحيازة السلاح ، وانشئت المحاكم العسكرية الـــتي كانت تصدر الأحكام القاسية لأتفه الأسباب والتهم والمخالفات .

ولقد كانت فرنسا الى هذا تغدق لهم الوعود وتبشرهم بحياة سعيدة بعد النصر ؛ فلما تم لها ذلك وقد هلك منهم مئة الف كان كل ما فعلته لهم تخفيف أحـكام ذلك القانون الارهابي الذي ذكرناه وبعض الضرائب ، وتوسيع نطاق ممارسة انتخاب المجالس البلدية والمحليـــة والسماح بتشكيل الجمعيات المحلية واهتمامها لشؤون الأهلين ، وتوسيع نطاق التعليم بعض الشيء ، مع الاحتفاظ بأساس بقـاء الجزائر ضمن افرنسيتها المقررة. على أن الروح الاستعمارية الافرنسية جعلت هذه التعديلات التافهة بدون ثمرة مجدية وظلت حالة الحرمان والاضطهاد الشديدة هي القاعدة المستمرة على أشد ما يكون من بغي وسوء .

صورة ما كانت عليه الجزائر الى سنة ١٩٣١

وبين يدينا كتاب لم يكتب للدعاية والتسويء وقد طبع في الجزائر وهو موثق بالأرقام والاحصاءات والوقائع صدر عام ١٩٣١ أي بعد مرور مئة عام على ابتلاء هذا القطر بفرنسا وبعد اربع عشرة سنة من انتهاء الحـــرب العالمية التي أغدق الافرنسيون فيها الوعود للجزائريين يستطيع المرء ان يتبين منه ما كانت عليه حالة البغي والسوء والحرمان والبؤس التي ظـل يرتكس فيهـــا الجزائريون وهـو كتاب تاريخ الجزائر للمدني . واليك مقتبسات من هذا الكتاب تصور الحالة السيئة الرهيبة التي كانت عليها الجزائر في عام صدوره .

التعليم

فالتعليم الذي ينفق عليه من ميزانية الجزائر نوعان واحد للمسلمين وآخـــر للأوروبيين . ونسبة الامية في المسلمين خمس وتسعون في المئة . وعـدد الذين هم في مدارس الحكومة منهم ستون الفا بينما كان عدد المسلمين اذ ذاك اكثر مـــن

سبعة ملايين وعدد الذين هم في سن الدراسة اكثر من مليون . وبعبارة ثانية ان نسبة الذين هم في هذه المدارس اقل من ست في المئة من الذين هم في سن التعليم مع ملاحظة ان هذا بعد ان وسعت السلطات نطاق التعليم بعض الشيء. وللقارىء ان يستنبط نسبة التعليم قبل هذا التوسيع المزعوم ! ومع ان مدارس المسلمين تسمى المدارس العربية فانحظ العربية والدين الاسلامي فيهاضئيل جداً، ومناهجها افرنسية صرف . هذا في حين ان عدد الطلاب الاوروبيين في المدارس الحكومية الخاصة بهم (١٣٦٠٠٠) من عدد مجموعهم البالغ (٩١٣٠٠٠) وان نسبة الذين هم في المدارس منهم اكثر من ثمانين في المئة من مجموع الذين هم في سن التعليم . وفي الجزائر عدد غير قليل من المدارس الثانوية والمتوسطة والعالية ، ولكن جل مقاعدها مخصص لابناء الاوروبيين ونصيب المسلمين فيها ضئيل جداً ، وتعليم اللغة العربية والديانة الاسلامية لايدخل في مناهج هذه المدارس .

وفي الجزائر جامعة تحتوي أربع كليات للطب والصيدلة والعلوم والآداب والحقوق ، وجل مقاعدها مخصص لابناء الأوروبيين وليس فيها من أبناء المسلمين إلاّ (٧٥) طالباً .

ومست الحاجة إلى قضاء شرعيين فأنشئت مدرسة لتخريجهم ضيقة النطاقضعيفة المنهج والروح ولم تكن تتسع لأكثر من مئة طالب .

وقد أنشئت بضع مدارس مهنية ابتدائية جاءت ضيقة النطاق ضيقة المنهج والروح كتلك ولم تأت بفائدة عملية ومثمرة .

ومع انه هناك عدداً من المدارس الابتدائية والثانوية للبنات إلا انها هي الأخرى تكاد تكون محتكرة للبنات الأوروبيات وحظ الفتاة الجزائرية فيها قليل جداً او يكاد ان يكون معدوماً .

وقد وضعت العراقيل المتنوعة في وجه ابناء المسلمين الذين يرغبون في إرتياد مناهل العلم في فرنسا وغيرها ، فكان الذين يتيسر لهم التغلب على هذه العراقيل أو التهرب منها يعدون على الاصابع .

هدف التعليم

وهدف التعليم الرسمي لأبناء المسلمين هو تنشئة أجيال متفرنسة لا تعرف العروبة والاسلام . ويتحقق هـذا الهدف بمن يخدمون الجندية منهم حيث يقضون مدة طويلة في أوساط إفرنسية . ويبذل المسلمون الذين هم شديدو التمسك بعروبتهم وإسلامهم جهوداً عظيمة في مكافحة هذا الهدف مندفعين بقوة الغيرة على المقدسات والتقاليد والكيان بما ينشئونه من كتاتيب عربية ومدارس قرآنية مسجدية على شدة ادقاعهم وضعف تنظيمهم . وقلما ينالون مساعدات مالية من السلطات في هذا السبيل مع ان هذه السلطات تتصرف بأموال الأوقاف الاسلامية ، وكل ما هناك ان جامع الزيتونة الذي يشبه في نظامه جامع الازهر يبذل جهودا عظيمة في حفظ العروبة والاسلام والكيان .

الحالة الصحية

والحالة الصحية عند المسلمين سيئة جـداً . والفقر المدقع الذي ترتكس فيه غالبيتهم العظمى من أهل المدن والقرى وعمال المدن يحول بينهم وبين التطبب والعلاج . ومن ثم فإن الامراض الخبيثة والوبائية تفتك فيهم فتكاً ذريعاً دون مبالاة من السلطات . وقد ذكر أحد الكتاب الافرنسيين أنه تقدم في مدينة الجزائر سنة ١٩٢٧ (١٨٦٠٧) شباب للجندية منهم تلبية للدعوة فوجد أن (٨٢٦٨) منهم لا يصلحون للخدمة بسبب سوء حالتهم الصحية . وكذلك وجد من (٨٤٨٤) ممن دعوا إلى الخدمة في مدينتين أخريين (٣٤٤١) لا يصلحون لها . واستدعت السلطة عام ١٩٢٣ في وهران (١٤٦٤٢) للخدمة فوجد بينهم (٥٤٤٦) لايصلحون لها منهم (٢٦٧٣) بسبب ضعف البنية وانحطاط القوة و (١٦٥١) بسبب امراض العيون و(٢٥٣) بسبب السل و (٣٦٨) بسبب الزهري و(٢١٨) بسبب الحمى المزمنة و (٢٥٣) بسبب الانحلال الجسمي الناشىء عن عدم كفاية التغذية . والمدن والأرقام المذكورة أمثلة يقاس عليها سائر الأماكن بطبيعة الحال . وقد كانت نسبة الوفيات في الاطفال عام ١٩٢٥ كما نشر في تقرير رسمي (٤٤) في الالف عند

الاوروبيين بينما كانت عند المسلمين (١٣٨) . ولقد انشأت السلطات (٩٧) مستوصفاً للأهالي وصفها كاتب إفرنسي بقوله انه لا يستطيع ان يصف حالتها اي قلم سوء بناء وقذارة وانعدام عناية وفقدان أبسط وسائل الاسعاف .

تنظيم سلب اراضي الجزائر

واراضي الجزائر الزراعية والحرشية تبلغ نحو واحد وعشرين مليون هكتار او مئتين وعشرة ملايين دونماً على تفاوت في الخصب والصلاح . وأملاك الدولة والبلديات منها نحو تسعة ملايين هكتار وأملاك الأهالي نحو ذلك . اما املاك المستعمرين فقد بلغت نحو مليونين ونصف هكتار منها نحو مليون وسبعمئة الف وزعت عليهم رسميا باسم الاستعمار الرسمي بأثمان إسمية ولآجال طويلة . والباقي اشتروه من الاهالي بمساعدة السلطات وضغطها بابخس الاثمان . وقيمة الهكتار الذي في يد المستعمر تقدر بخمسة وعشرين الف فرنك بينما قيمة الهكتار الذي في يد الاهلين لا تزيد عن ثلاثة آلاف فرنك مما يدل على ان ما في يد اولئك هو اجود الاراضي واخصبها واعمرها . وعلى هذا الحساب فإن قيمة اراضي المستعمرين إثنان وستون مليار فرنك بينما قيمة اراضي الاهالي التي هي ثلاثة أضعاف ونصف هذه مساحة سبعة وعشرون مليار . وعدد المستعمرين هو (٩١٣) الفا . وقياسا على الماضي يمكن ان يقال ان قسما كبيراً من اراضي الدولة والبلديات التي من ضمنها اراضي الاوقاف الاسلامية والتي صودر شيء كثير منها من الاهالي في مبادىء الغزوة قد تسرب الى المستعمرين خلال المدة التي انقضت بين سنة صدور الكتاب الذي ذكر هذه الارقام وهي ١٩٣١ وبين سنة ١٩٥٠ (١) والتي ظلت قوافل المستعمرين مستمرة فيها بخطوات حثيثة ، وان عدد المستعمرين قد تجاوز المليون والربع ، وان ثروتهم الزراعية قد تضاعفت بينما ثروة الاهلين قد تضاءلت ، وفقرهم قد اشتد كثيراً عن قبل .

(١) في خطاب القاه نائب جزائري في مجلس النواب الافرنسي في ٢٠ آب ٩٤٧ تصديق لذلك والخطاب منقول في مناسبة آتية من هذا الفصل

الفقر المدقع

وقد ادى هذا الى ان أصبح أغلب سكان القرى والبراري عمالاً زراعيين عند المستعمرين بـل وان اصبحت حالتهم شبيهة بحالة عبيد الارض في القرون الوسطى والاخيرة لا يكادون يحصلون على ما يسد الرمق ويستر العورة . وتضع السلطات شتى العراقيل في وجه من يريد النزوح الى فرنسا للعمل فيها منهم لئلا يفقد المستعمرون اليد العاملة الرخيصة . وبمـا يجدر التنبيه عليه ان المستعمرين يعتمدون في اعمالهم الزراعية عـلى رؤوس امـــوال متخمة تهيئها لهم المصارف والشركات والجمعيات التعاونية كما ان الآلات الحديثة تشغل حـيزاً كبيراً في هذه الاعمال . ويكاد المسلمون أن يكونوا محرومين من كل ذلك . والسلطات في شغل عنهم بمـا أخذته على نفسها من تشجيع الاستعمار الأوروبي وترقيته وتوسيعه عـلى حساب الضرائب التي تجبى منهم !

ومن أراضي الدولة والبلدية مساحات واسعة غابات ، غير أنها نعمة على الأوروبيين ونقمة على المسلمين ، حيث تهيأ للأولين كل وسائل الاستثمار بينما يرهق الآخرون بالغرامات والمصادرات لأتفه الأسباب .

الكروم

وقـــد كاد المستعمرون يحتكرون زراعة الكروم وعصيرها ، حيث كانوا يملكون في سنة ١٩٣١ نحو مئتين وخمسين الف هكتار ، ويستخرجون منها ما معدله عشرة ملايين هكتو ليتر من الخمور سنوياً بينما لم يكد يبقى في يـد المسلمين شيء من كروم العنب . امـــا كروم الزيتون فقد كان المستعمرون يملكون في تلك السنة نحو نصفها .

المعادن

وفي الجزائر معادن ومناجم كثيرة وغنية من فسفات وحديد وزنك ورصاص ونحاس وزئبق ونفط ورخام وفحم وجص . واستثمار هذه المعادن محتكر في يد

الأوروبيين . وقد كان عدد الامتيازات التي نالوها لغاية سنة ١٩٢٧ (١٢٧) وكانت قيمة ما اصدرته شركات الاحتكار من هذه المعادن في تلك السنة مئتي مليون . وقياساً على الماضي فما لاشك فيه ان استثمار الاوروبيين لمعادن الجزائر قد اتسع وان قيمة الانتاج والكسب قد تضاعفت أضعافاً مضاعفة وكل ما للمسلمين من ثروة بلادهم المعدنية العظيمة هذه إشتغال بضعة آلاف عامل بالاجور البسيطة وبالتحكم الذي يشبه تحكم السادة بالعبيد .

الصناعة

كذلك الصناعة فان الاوروبيين قد انشأوا شركات ضخمة واسسوا مصانع عظيمة دعمتها منشآت ومصارف قوية فغدت الصناعات والمنشآت الآلية الكبيرة محتكرة في ايديهم تقريباً بحيث كان لهم في سنة ١٩٣١ (١٥٠) مطحنة كبرى و (٥٥) معجنة كبرى و (٥٠٠٠) معصرة زيت و (٥٠) معملا للدخان وثمانية معامل كونسروه على انواعها ومعملان للثقاب و (٥٤) معملا للدباغة و (٥٨) مصنعاً للبراميل و (١٥) معملا للاحذية و (٨١) معملا لصناعات متنوعة أخرى ! ولم يستطع المسلمون ان يجروا في هذا المضمار جريا ذا بال لقلة المال وكثرة العراقيل وكل ما لهم في هذه الحركة بضعة آلاف من العمال يعيشون على فتات المعامل الأوروبية المذكورة . وقد كانت لهم صناعات يدوية ناجحة فلم تزل المزاحمة الاوروبية والسياسة الجمركية تشدد عليها حتى قضت عليها تقريباً .

التجارة

وتكاد التجارة تكون محتكرة أيضاً في يد الأوروبيين وليس للمسلمين فيها الا نصيب ضئيل . وما يصدر من الجزائر من خمور وحبوب وجففات وحمضيات ودخان وجلد انما يصدر عن ايدي الأوروبيين والبيوتات التجارية الأوروبية ، التي تستولي على ما ينتجه المسلمون من غلات زراعية متنوعة بالاسعار البخسة وتتولى تصديرها . وقد فتحت ابواب الجزائر على مصراعيها للسلع الافرنسية بنوع خاص

واستثنيت تقريباً من الرسوم الجمركية ، واحتكرت استيرادها البيوتات التجارية الاوروبية فغدت الجزائر سوقاً عظيمة لهـــذه السلع محمية من المزاحمة الاوروبية ومتحكمة في هذه السوق .

التجنس

ولقد فتح للجزائر باب التجنس الذي يسمح لهم بالتمتع بالحقوق الافرنسية . غير انه اشترط على من يريد التمتع بهـــا ان يتعامل بالقانون المدني الافرنسي في الأمور الشخصية والمدنيه من نكاح وطلاق وميراث ووصية وهبة الخ دون القانون المدني الاسلامي . فكان هذا الشرط وظل حائلا دون اشتراك المسلمين في الانتخابات البرلمانية الافرنسية والانتخابات المحلية المخول حقها للافرنسيين ، ودون انتفاع الموظفين المسلمين بالامتيازات الممنوحة لزملائهم الافرنسيين في المرتبات والدرجات والاجازات الخ ، ولم يستجب الى هذا الشرط الا فئة قليلة منهم . والمتبادر أن فرنسا قد هدفت في هذا الشرط الى هذه الغايات والاعتذار به عنها لأنها تعرف شدة تمسك الجزائريين بتقاليدهم الاسلامية ؛ وفي هـــذا ما فيه من المكر وسوء النية والروح العدوانية ، وهو مخالف للمنطق والعقل بل والحق الدولي . ولكن روح الاستعمار الافرنسية لم تكن لتعبأ بمثل هذا المثل .

وبالرغم عما يخسره المسلمون من هذا الموقف فانهم متشددون فيه كل التشدد . ويرون في الشرط انخلاعاً من ربقة الاسلام والكيان العربي الجزائري كما هو كذلك حقيقة . ولقد غدا الذين قبلوا بهذا الشرط والذين ظلوا مع كل ما كان من تشويق واغراء أقلية ضئيلة كالطبقة المنبوذة بحيث لا يصاهرهم المسلمون ولا يشتركون في تشييع جنازاتهم ولا يوافقون على دفنها في مقابرهم . ومن الطريف ان هذه الطبقة لم تستطع في الوقت نفسه ان تندمج في المجتمع الافرنسي أيضاً حيث ظل الافرنيسون ينظرون اليهم نظرهم الى الافريقي المنحط عنهم جنساً ومركزاً . وحيث ظل هؤلاء يتمتعون بامتيازات عديدة لا يتمتع بها اولئك .

ولقد قلنا في مناسبة سابقة ان تجربة نظام الدوميذيون جاءت تقليداً مسيخاً وأن الروح الافرنسية المتسلطة ظلت هي السائدة في النظام الجديد ، كما ظل الوالي العام من جهة والحكومة الافرنسية من جهة هما أصحاب الهيمنة على كل صغيرة وكبيرة فيه. ونقتبس هنا من كتاب المدني بعض صور لما كان في الجزائر سنة ١٩٣١ من مجالس تمثل ما قلناه وتصور مدى ما كان من تسلط الافرنسيين في هذه المجالس التي هدر فيها حقوق المسلمين الذين هم اهل البلاد .

فقد كان للوالي العام مجلس حكومة بمثابة مجلس وزراء . غير ان اعضاء هذا المجلس هم رؤساء المصالح العامة الافرنسيون من جهة وقراراتهم استشارية بالنسبة للوالي الذي هو صاحب الهيمنة العامة الشاملة من جهة اخرى . وليس في هذا المجلس احد من المسلمين .

وهناك ثلاث تشكيلات ادارية او بلدية . . احداها « البلديات العاملة » ومهمتها النظر في كل ما يتصل بالشؤون الصحية والتعليمية والتنظيمية ورؤساء هذه البلديات افرنسيون يعينهم الوالي . ويساعدهم مجالس منتخبة مؤلفة من الافرنسيين والمسلمين ولكن عددهؤلاء لايجوز ان يزيد عن الثلث! وحق الانتخاب لغير الافرنسيين والمتجنسين مقيد بقيود تجعل ممارسة هذا الحق محدودة جداً. ومن غرائب هذه القيود ان المسلمين يصح ان ينتخبوا افرنسيين ومتجنسين ولكن هؤلاء لا يجوز لهم أن ينتخبوا مسلمين جزائريين .. وثانية التشكيلات هي « البلديات الممتزجة » وهي اشبه بحكومات ادارية وتشمل صلاحيتها المدن وغير المدن . ورؤساؤها افرنسيون كذلك وتابعون للوالي رأساً، ويسمون مديرين او متصرفين ولهم دبدبة ومظاهر عسكرية . وسلطتهم تكاد تكون غير محدودة، ويكاد الواحد منهم يكون الحاكم بأمره . ولهم سلطات قضائية ادارية زجرية وخاصة بموجب القانون الارهابي الذي ذكرناه في مناسبة سابقة . ويساعد المدير لجنة اغلب اعضائها افرنسيون .. والثالثة هي « البلديات الاهلية » وهي خاصة بالأنحاء الجنوبية التي يعيش سكانها حياة القبيلة . وتكاد تكون هذه التشكيلة حكومة عسكرية، حيث يرأسها قائد الموقع الافرنسي ويساعده لجنة أغلب اعضائها من الضباط الافرنسيين .

المجالس

وهناك مجالس تسمى المجالس العمومية في مراكز المديريات ذات صبغة تمثيلية مهمتها النظر في شؤون المديرية المحلية . وعدد النواب المسلمين فيها مقيد بالربع ! أما الارباع الثلاثة الاخرى فهم افرنسيون ينتخبهم الافرنسيون . وللمسلمين أن ينتخبوا إفرنسيين ولا يصح العكس .

وهناك مجلس اسمه مجلس النيابات العامـــة وهو بمثابة البرلمان الجزائري وله صلاحيات كبيرة في شؤون الضرائب والميزانية مع القيد ان قراراته استشارية . ويتألف من (٦٩) عضواً (٤٨) منهم افرنسيون نصفهم يمثلون المستعمرين ونصفهم يمثلون اصحاب المصانع والحرف والشركات . اما المسلمون فعددهم واحد وعشرون

وهناك مجلس آخر يسمى المجلس الاعلى وهو المختص بالنظر في القرارات التي يصدرها مجلس النيابات المالية مع القيد ان قراراته استشارية ايضاً، وعدد اعضائه ستون (٢٩) منهم يعينهم الوالي وهم اعضاء مجلس الحكومة وقواد الجيش واربعة من كبار الموظفين وثلاثة من الاهالي و (٣١) منهم يمثلون مجلس النيابات المالية ومجالس المديريات العمومية . ومن مجموع اعضاء هذا المجلس عشرة مسلمون فقط، سبعة منهم في مجالس المديريات وثلاثة يعينهم الوالي !.

وفي الجزائر سبع غرف تجارية . وأعضاؤها ينتخبون مـن التجار المسجلين . ومع ذلك ففي نظامها قيد ينص على عدم تجاوز عدد الناخبين والمنتخبين المسلمين عُشر العدد العام لكل من الطبقتين ! وهناك غرف زراعية ، وعـدد اعضاء كل غرفة (٢٢) منهم (١٦) افرنسياً ينتخبون انتخاباً مـــن قبل المستعمرين وستة مسلمون يعينهم الوالي تعيينا !

الوظائف

ولقد قلنا ان الوظائف المهمة والثانوية محصورة في الافرنسيين . وفي كتاب المدني اسماء الوظائف التي كان يحرم على الجزائري المسلم توليتها والتي تسمى وظائف

سلطة نسردها في ما يلي كمصداق لما قلناه ولتصوير حالة الحرمان والاحتقار التي يرتكس فيها اهل هذا القطر المذكور :

كاتب عام بالولاية – نائب مستشار حكومة – مدير عام – متصرف – نائب متصرف مستشار متصرف – كاتب عام متصرف - مراقب او مدير أو مدير ثان ببلدية ممتزجة – رئيس اول بدائرة الاستئناف رئيس غرفة عليا - مستشار عدلي – مدعي عام – وكيل حق عام – نائب مدعي عام – نائب وكيل حق عام – رئيس محكمة ابتدائية - نائب رئيس محكمة ابتدائية - قاضي تحقيق – حاكم – نائب – قاضي صلح – نائب قاضي الصلح – مدير جامعة علمية – مراقب علمي – محافظ مياه – مراقب مياه – محافظ او مراقب غابات – قابض عام أو خاص بالخزينة الجزائرية مدير ديوان – مراقب ديوان – مدير تسجيل املاك الدولة ومراقب تسجيل – مدير دمغه – مدير بادارة الضرائب – مراقب بادارة الضرائب - مراقب ادارة عمال - مدير ادارة بريد – مراقب ادارة بريد – مفوض بوليس – مراقب بوليس في السكك الحديدية والمراسي ..

والذي يجري العمل عليه هو انه لا يمكن للمسلم الجزائري ان يتوظف في الادارة الجزائرية الا قاضيا شرعيا او ترجمانا أو نفراً أو شاويشا في البوليس أو مراسلا أو ساعيا أو مدرسا أو كاتبا صغيراً .. وهناك عدد كبير من الافرنسيين يتولون هذه الوظائف التافهة أيضا. والمرتب الذي يتناوله الموظف الافرنسي اكبر من المرتب الذي يتناوله الموظف المسلم من نفس رتبته فضلاً عن زيادة ٣٣ في المئة باسم علاوة الاغتراب !

القضاء

والقضاء في الجزائر منظم وفق الانظمة الافرنسية كما أن القوانين النافذة هي قوانين افرنسية ، ولغة المحاكم هي اللغة الافرنسية . وهناك قضاء شرعي اسلامي للنظر في شؤون المسلمين الشخصية ، وكان ذا اختصاصات واسعة ظلت السلطات تنتقص من أطرافها حتى غدت بقانون اصدرته عام ١٨٨٦ ضيقة جداً تكاد تصبح

عدما حيث خولت محاكم الصلح الافرنسية النظر في جل الشؤون التي كانت ينظر فيها مما يتصل بالامور الشخصية والمدنية .

السياسة البربرية والتبشير

ولقد سارت السلطات الافرنسية على خطة التفريق بين العرب والبربر منذ عهد مبكر فاصدرت في عام ١٨٥٩ قانوناً يخرج القبائل البربرية من نطاق القضاء الشرعي الاسلامي ويجعلها تابعة لقضاء خاص يستمد من العرف الجاهلي رغم دينونه هذه القبائل بالاسلام وخضوعها لقضائه الشرعي أحقاباً طويلة ، ويقوم به هيئات من القبائل عرفت باسم هيئات الجماعة ، هادفة بذلك الى اثارة النعرة العنصرية في البربر وسلخهم عن الاسلام وتهيئتهم لنشاط التبشير المسيحي ، الذي شجعته تشجيعا عظيما حتى انتشرت مراكزه في المدن والبوادي بكثرة كبيرة . وكان مما يعمد اليه المبشرون تلقين البربر أنهم أوروبيون مسيحيون في اصولهم ، وان العروبة والاسلام اجنبيان عنهم !

ومما فعلته السلطات بسبيل ذلك تخصيص مبالغ طائلة للجمعيات الدينية المسيحية باسم النظر في شؤون المسيحيين الدينية ونظرة الى رقمين في احدى الاحصائيات تدل على المحاباة وسوء القصد . فقد كانت مخصصات الجمعيات الاسلامية التي تنظر في شؤون المسلمين الدينية عام ١٩٢٧ (٣٣٧٠٠٠) فرنكا في حين ان عدد المسلمين يزيد عن سبعة ملايين اذ ذاك بينما كانت مخصصات الجمعيات المسيحية (٨٨٣٠٠٠) فرنك وهم اذ ذاك نحو ستمائة وخمسين الفا . وقد استولت السلطات على الاوقاف الاسلامية الواسعة القيمة وأدخلتها ضمن املاك الدولة .

- ٧ -

استمرار هذه الصور الى الآن

وهذه الصور البشعة الظالمة التي كانت في عام ١٩٣١ ظلت هي القائمة تعمل الى

الآن بجدّ ودأب في تجويع الشعب الجزائري وافقاره وحرمانه وتجهيله وهدم كيانه ومقوماته على ما يستفاد من صرخات بعض النواب الجزائريين في مجلس النواب الافرنسي بين يدي مشروع نظام الاتحاد الجزائري الافرنسي الذي فكرت به فرنسا ؛ مع ملاحظة ان النواب الجزائريين المسلمين هم من المتجنسين بالجنسية الافرنسية والذين وصلوا حبالهم بحبال فرنسا فاستطاعوا ان يصلوا الى مقاعد مجلسها النيابي. وأمامنا ثلاث خطب لثلاثة منهم احداها في حالة الجزائر الاقتصادية وثانيتها في حالتها الأدبية وثالثتها في حالتها السياسية.

صرخات نواب الجزائر عام ١٩٤٧

وقد جاء في الاولى التي القاها احمد مزغنه في هذا المجلس يوم ٢٠ آب من عام ١٩٤٧ فيما جاء : ان ما يقرب من نصف الاراضي الزراعية أي تسعة ملايين هكتار من عشرين هي ملك لثمانمائة الف مستعمر بقطع النظر عن التفاوت العظيم في نوع الأرض حيث تزيد قيمة اراضي المستعمرين اضعافا مضاعفة عن قيمة أراضي الجزائريين ، وبهذا التفاوت العظيم أصبح المستعمرون هم أصحاب اجود الاراضي وأخصبها . وهم اصحاب الملكيات الكبيرة والمتوسطة فيها . فهناك طبقة منهم كبيرة العدد يتجاوز متوسط ما يملكه الفرد منهم (١٠٠٠٠) هكتار اي مئة الف دونم . وهناك طبقة منهم أقل متوسط يملكه الفرد هو مئة هكتار، هذا في حين ان طبقة قليلة العدد من المسلمين متوسط ملكيتها خمسة عشر هكتاراً — ١٥٠ دونما . أما متوسط ما يملكه الجمهور الاعظم فهو هكتاران . ولا تصلح أراضيهم على الاغلب الا للزراعة الموسمية التي تظل تحت رحمة السماء في حين أن جميع الاراضي المروية والصالحة للخضروات والاشجار المثمرة في يد المستعمرين .

وقد خصوا عدا ذلك بخزانات المياه ومعدات الاشغال العامة التي تدفع تكاليفها ميزانية الجزائر. اما اليد العاملة فيقدمها الاهالي الذين كونت منهم تلك الاقطاعية طبقة تعد بالملايين من الفلاحين الكادحين الذين جردوا من كل شيء وحرموا من كل امل وباتوا عرضة للجوع والعري والتشرد ، فأصبحوا اساس المشكلة الجزائرية

فمن المليون والاربعمائة الف اسرة التي يتكون منها الجزائريون يوجد (٨٠٠) الف اسرة عمال كادحين منها ٧٠٠ الف أي ما يقرب من اربعة ملايين نسمة تتكون منها هذه الطبقة العاملة الزراعية. وقد كانت اغلبية هذه الطبقة هي صاحبة الارض والشاغلة لها تعيش بشيء من الهناء ، ويكاد المزارع يكون شريكا لصاحب الارض أكثر منه اجيراً ، ففي اقل من مئة عام تغير المجتمع الجزائري تحت ضربات هائلة تغيراً كليا حتى بدت هذه الصورة الرهيبة لهذة الطبقة . ولقد كانت حالة سوء الغذاء التي اصابت العالم اثر الحرب هي الحالة السائدة في الجزائر قبلها ، وحالة المساكن التي تسكنها هذه الطبقة سيئة جداً وضارة بالصحة وقد تفشت فيها الامراض بسبب عوامل الجوع وسوء الغذاء والمسكن تفشياً مخيفا وللسل خاصة مرتع خصيب وواسع فيها .

ولا تختلف سياسة الاستعمار ونتائجها في ميداني الصناعة والتجارة عنها في ميدان الزراعة ، حيث قامت على أساس حماية الصناعة والتجارة الافرنسية .

وقد جاء في الثانية التي القاها مسعود بو قادوم : ان الاستعمار الافرنسي لم يقنع من بلادنا بالاستئثار بثروتها واقتصادياتها واستغلال شعبها بل حارب كذلك ثروتها الثقافية وميراث شعبها الروحي. ان للجزائر شخصية خاصة كونتها القرون المديدة من وحدتها الجغرافية واللغوية والتاريخية والدينية . وليس هناك ما يزعمه البعض من فرق بين العرب والبربر بل هناك شعب واحد هو الشعب الجزائري . ولقد أجهد الاستعمار نفسه كثيراً في إبادة هذه الشخصية لأنه ظن ان الشعب الذي غلب بالسلاح واستؤثر باقتصاده وحرم مقومات شخصيته سيصبح بمثابة حفنة من غبار بشري خال من الروح ومستعد لقبول كل التغييرات وانواع العبودية والرق . إنكم لا تجهلون ان الشعب الجزائري دينه الاسلام ولغته العربية ؛ وهذان هما العنصران الرئيسيان اللذان يكونان الشخصية التي يحاربها هذا الاستعمار . ومع أن معاهدة تموز ١٨٣٠ المنعقدة بين الداي والجنرال دي بورمون تحتم احترام حرية جميع السكان ودينهم وملكيتهم فانها نقضت بعد شهرين ثم ظلت تنقض. وقد وضعت الادارة الاستعمارية يدها منذ تلك السنين على الأملاك الدينية ، وغدت المساجد والمعاهد تحت تصرفها المباشر وفقد الدين الاسلامي استقلاله ، بل لقد حرم من

الحرية التي منحها مبدأ فصل الدين عن الدولة الذي اعلنته الجمهورية الافرنسية والتي يتمتع بها الدينان المسيحي واليهودي. وأبعد نكاية وبشاعة من هذا أن النفقات التي تؤديها الادارة للأديان غير الاسلامية تحسب على خزينة الاوقاف الاسلامية وان ما ينفق على مصالح الدين الاسلامي الذي يعتنقه عشرة أضعاف معتنقي الاديان الاخرى لايزيد على ثلث ما ينفق على مصالح الأديان ... وكان من جملة آثار هذا العدوان أن أصبح موظفو المعاهد الاسلامية من أعوان الاستعمار الذي يبذل جهده في محاربة الدين الاسلامي ولغته ومعتنقيه ، وان تعطلت مؤسسات ثقافية عديدة كانت تساعد على تثقيف ابناء المسلمين وتعليمهم مساعدة كبرى . وهكذا كان وضع الاستعمار يده على املاك الاوقاف بمثابة سلب صريح وخيانة صاوخه ، وضربة موجعة أصابت الدين الاسلامي وحده رغم مبدأ اللادينية الذي ما انفكت فرنسا تعلنه عن دولتها في كل مناسبة . ولقد سهلت السبل امام التبشير بالنصرانية بمختلف الوسائل مهما كان فيها من تحد للمسلمين وشعورهم . وكان المبشرون يغتنمون فرصة المجاعات والثورات لاخذ اطفال المسلمين وتنصيرهم على اعتبار ان تنصير المسلمين هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بها تذويب الجزائريين في البوتقة الافرنسية . وإذا كانت هذه المحاولات لم تنجح نجاحها المأمول فانما مرد ذلك الى قوة رسوخ التقاليد الاسلامية في الشعب الجزائري . والى جانب هذه الجهود المبذولة لتنصير الشعب الجزائري هناك سياسة حرب مشنونة على عروبته . وقد اصبحت المدارس التي تعلم اللغة العربية نتيجة لهذه السياسة تحت اجراآت شديدة صارمة ، حتى تلك الكتاتيب التي يلقن المعلمون البسطاء فيها سور القرآن بطرقهم القديمة لم تسلم من هذه الاجراآت . ولقد كان من جملة هذه الاجراآت وجوب الحصول على رخصة ، ثم عسرت هذه الرخص كل التعسير ؛ حيث شرط على معلمي المدارس العربية معرفة اللغة الافرنسية كما اعتبرت اللغة العربية القرآنية التي هي لغة اهل البلاد لغة أجنبية فكان كل ذلك سبباً في إغلاق جميع المدارس والمعاهد والكتاتيب القرآنية والعربية !

وقد جاء في الثالثة التي القاها الاستاذ دردور : ان الحرب التي أعلنها الاستعمار الافرنسي على الشعب الجزائري تطرّد في المجال السياسي اطرادها في المجالين

الاقتصادي والادبي فقد أنشأ الاستعمار جهازاً ادارياً تسيطر عليه الاقلية الأوروبية سيطرة مطلقة. ويقوم هذا الجهاز على الضغط المستمر المنظم على الجزائريين الذين حرموا من دستور يحفظ حقوقهم ويحمي حرياتهم والذين ليس لهم أية مساهمة جدية في حكم بلادهم، حيث تتجمع جميع السلطات العسكرية والسياسية والادارية في يد الحاكم العام، اما الادارة المباشرة فترجع الى مكاتب الشؤون الاهلية التي هي تحت سلطة هذا الحاكم وإدارة ضباط متخرجين من مدرسة بيجو الاستعمارية القديمة الذين لا يعرفون غير مبدأ واحد للحكم وهو مبدأ « القوة » ومن هذه المكاتب التي سميت أخيراً تضليلاً باسم « مكتب الاصلاحات الاسلامية » يعين الضباط حكاما لمناطق الجنوب ويعين المديرون والمحاتير والمراقبون الذين هم آلات مسخرة لتنفيذ سياسات الاستعمار الاقتصادية والادبية والسياسية. والمجلس الاعلى الذي هو استشاري يتكون من ستين عضواً ليس بينهم من العرب الا سبعة اربعة منهم منتخبون! والمجلس المالي صاحب السلطات المالية يتكون من ٦٩ عضواً ليس فيهم إلا ٢١ جزائريا(١)... وما تزال مناطق الجنوب تدار بادارة عسكرية وحكامها العسكريون يتمتعون بصلاحيات غير محدودة عسكرية وإدارية وقضائية. وما يزال قانون « الانديجن » الخاص بالعرب والذي وصفه احد الكتاب بأنه القضاء المرعب جاثماً على الشعب بصلاحيات النهب والاستغلال المتوحش والاستعباد وخنق الحريات وقتل الجهود والحيلولة دون اي حرية اجتماعية أو سياسية وما يزال نظام الغرامات المشتركة قائماً يرهق الشعب بمظالم حيث يفرض بموجبه على المنطقة التي تقع فيها جريمة ولم يعثر على مجرمها غرامة تبلغ أحيانا ستة وثمانية اضعاف الضرائب فضلا عن تعرض جميع الاملاك للحجز الصارم. كذلك وما يزال نظام الغابات مرعيا وهو الذي يقاسي منه الشعب أشد انواع المتاعب والاضرار، ومن جملة ذلك وجوب تعليق جرس في رأس كل شاة ووجوب سلوك الرعاة طرقا معينة في غدوهم ورواحهم تحت طائلة الغرامات.. وقد حرم الشعب الجزائري من جميع الحريات مهما كانت أولية أو ضرورية لحياة الشعوب حتى حرية التنقل والتجول بينما يتمتع الاوروبيون في الجزائر بجميع الحريات ولهم الحقوق المطلقة في

(١) هذا العدد وذلك كان في عام ١٩٣١!

تأسيس ما يشاؤون من الجمعيات والأحزاب وعقد الاجتماعات مما حرم منه الشعب الجزائري البتة .. ويستخدم الاستعمار سلاحاً رهيبا في ممارسة سيطرته وارهابه وهو ما يسميه من قبيل التواضع بالأمن العام والذي يتكون فضلاً عـــن الدرك والحرس المتجول وشرطة التحري والعملاء الاذناب التابعين لمكتب الشؤون الاهلية مـن جيش عرمرم مستعد في كل وقت لتحطيم اي محاولة يقوم بها الشعب ليدفع عن نفسه الأذى . وقد عززت هـــذه القوة في المدة الاخيرة واستخدمت شرطة خاصة مهمتها مراقبة نشاط الوطنيين السياسي .. وفي حقـل التعليم يسلك الاستعمار سياسة تجهيل منظمة خطرة . فهو فضلاً عن عدم بذله اي مجهود أو عناية لنشر العلم بين العرب يقوم بحرب سافرة مستمرة لمناهضة التعليم العربي . وخطته الدائمة في التعليم الافرنسي للعرب هي حبسهم في حلقاته الابتدائية واقامـــة كل العقبات أمام ما بعدها .. وقد جاء في بيان القاه رئيس المجمع العلمي الجزائري الافرنسي سنة ١٩٤٤ ان مجموع الاطفال المسلمين الذين هم في سن التعليم يبلغ مليوناً وربعاً ولا يتلقى منهم التعليم الافرنسي غير مئة الف، وأن عدد الاطفال الاوروبيين الذين هم في المدارس ضعف عـدد ابناء المسلمين مـع ان عدد المسلمين أكثر من عدد الاوروبيين سبع مرات . وهذا يعني بعبارة اخرى ان الاطفال العرب الذين يتلقون التعليم أقل من نسبة الاطفال الأوروبيين بأربع عشرة مرة . ويخصص من الميزانية لتعليم العرب (٨٨) مليونا بينما يصرف على مدارس الاوروبيين منها (٣٣٩) مليونا .. والاستعمار يبذل جهده في سبيل بقاء العرب اميين ويسهر على ذلك سهراً فائقا لانه يعتبر تعليمهم ماسا بقدسية امتيازاته . اما التعليم الثانوي والعالي فيكاد يكون محرما على الجزائريين تحريما مطلقا . ففي جامعة الجزائر اربعة آلاف طالب ليس منهم من العرب الا مئة والباقون من ابناء المستعمرين . وليس من جزائري يستطيع ان ينتسب الى المدارس المهنية والفنية العالية ، فجميع طلاب هذه المدارس من اولئك الابناء . وكل ما هنالك بعض مدارس مهنية ابتدائية تعلم فيها مبادىء أولية للحدادة والنجارة يستطيع ان ينتسب اليها ابناء المسلمين (١)

(١) يلاحظ مصداق القول بأن الصورة التي كانت عام ١٩٣١ وحتى الارقام ظلت على ما هي عليه بعد مضي اكثر من خمس عشرة سنة اومنها ما كان تفوقا للمستعمرين على المسلمين مثل ملكيات الأراضي.

النضال الوطني بزعامة المصالي

ومع ان السلطات قد تنفست قليلاً من كابوس الارهاب بعد سنة ١٩٣١ وسمحت في وقت ما للجزائريين بتشكيل جمعيـــات أهلية تنشط في سبيل حقوق المسلمين وشؤونهم ، وأن هؤلاء سارعوا الى الانتفاع من الفرصة فأنشأوا بعض الجمعيات ، وأخذوا يرفعون اصوات الشكوى من جـور القوانين وسياسة التجهيل والافقار والحرمان من كل مشاركة مجدية في الحكم والادارة ومن استمرار تدفق المهاجرين وتوطينهم في الأراضي الصالحة والاغداق عليهم من أموال الدولة وتفضيل المستعمرين في كل شيء ، والسير بخطوات واسعة في سبيل سلخ الصبغة العـــربية الوطنية الاسلامية عن الجزائر الخ ، وأنه نتج عن هذا ايفاد لجنة تحقيق عام ١٩٣٢ لدرس الأوضاع فلمست كل اسباب الشكوى فيما قدم لها من أرقام وتقارير وشاهدته من وقائع ؛ فان السياسة الغاشمة المرسومة ظلت هي الدستور النافذ بتأثير رجـــال الاستعمار في فرنسا والجزائر دون مبالاة بالشكوى والواقع الأليم المرير على ما هو ثابت من صرخات نواب الجزائر التي اقتبسنا منها ما اقتبسناه آنفا ؛ فكان هذا مما دفع الوطنيين الذين كوّنوا كيانهم القومي الوطني بزعامة زعيمهم الكبير المناضل الى خطوة جريئة وصريحة تصح أن تكون موقفاً حاسماً من مواقف النضال الوطـني السياسي الصريح ، وإعلاناً لولادة الحركة العربية القومية في الجزائر .

اعلان ميثاق الاستقلال واثره

كذبت كل ما منت فرنسا به نفسها وظنت أنها حققته في الجزائر حيث عقـد مؤتمر عربي في سنة ١٩٣٧ شهده اصحاب الشأن والكلمة والبروز من رجال المسلمين وشبابهم تقرر فيه إعلان الجزائر وطناً عربياً مستقلاً وبطلان كل ما فرضته فرنسا من أنظمة وقوانين وجهاز حكومي وإفرنسية الجزائر ، وأذيع بذلك بيـان قوي هز الافرنسيين هزاً عنيفاً وجعلهم يجن جنونهم ويقومون بحركة ارهاب واسعة

وعنيفة حيث أعلنوا الأحكام العسكرية واعتقلوا الزعماء الوطنيين ومئات من البارزين وحكموا على بعضهم بأحكام قاسية، ونفوا بعضهم الى المنافي الصحراوية. وكان لحركة الارهاب هذه رد فعل شديد ظهر في المظاهرات الصاخبة والاشتباكات الدامية مما اضطر السلطات الى تخفيف غلوائها والعمل على تهدئة الأفكار؛ ولا سيما ان حالة أوروبا قد كانت تسير من سيء الى أسوأ.

الجزائر في الحرب الثانية

ونشبت الحرب العالمية الثانية بعد قليل فاغتنمتها فرنسا فرصة لفرض رقابة عسكرية ارهابية شديدة، وجندت في ظلها مئات الألوف من الجزائريين الذين قذف بهم الى جبهات اوروبا وحاربوا في صفوف فرنسا وأراقوا دماءهم في سبيل الدفاع عنها ولما انهارت فرنسا الأم ووقعت تحت سنابك غزاة الألمان كانت الجزائر ملجأ حركة التحرير التي رفع لواءها ديغول باسم فرنسا الحرة، واستغلتها هذه الحركة فيما صار لها من نمو وقوة؛ وبدلاً من ان يحفز هذا الافرنسيين على الاعتراف بجميل الجزائر وردّه عليها رداً كريماً شدد حرصهم على التمسك بها فأخذوا يرددون نغمة الاتحاد الافرنسي التي تهدف الى سلخ أقطار المغرب العربي من كيانها القومي العربي أبديا.

استئناف النضال الوطني

فعادت الحركة الوطنية الى النشاط ثانية على أساس بيان مؤتمر عام ١٩٣٧ وبزعامة الحاج علي وأخذت الروح تقوى وتنتشر؛ ولم تكد الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها في أوروبا حتى عادت الحركة النضالية الى قوتها منذ أوائل عام ١٩٤٥، وأخذت صرخات الاحتجاج تتعالى والزعماء الوطنيون يدعون الى الجهاد في سبيل الحرية والاستقلال والنجاة من براثن فرنسا والالتحاق بقافلة الحركة العربية العامة، وأخذت البلاد العربية تردد هذه الحركة وتؤيد الجزائريين والمغرب العربي عامة في نضاله ومطالبه؛ وكان قيام الجامعة العربية واشتداد قوة الحركة العربية

في ظروف قيامها مما ساعد على هذا الترديد وأحدث أثراً في اشتداد ساعد المغرب وحركته .

الانفجار الثوري

وتجهمت فرنسا واشتدت في المطاردة والكبت فأدى ذلك الى انفجار شديد في مناطق قسنطينة وسطيف وغيرها حيث كانت اشتباكات دموية خطيرة اشترك فيها الألوف وبدت عليهـــا علائم ثورة لاهبة واسعة المدى ، وقد عمدت فرنسا الى ما اعتادته من قوة القمع والتنكيل فقصفت مناطق الثورة بالطيارات والمدافـــع ودمرت عدداً كبيراً من القرى والأحياء وذهب ضحية هذا القمع القاسي أرواح آلاف من الجزائريين قدرتهم الاحصاءات المغربية الوطنية بما يتراوح بين الثلاثين والخمسين الفا واعترفت السلطة الافرنسية ببضعة آلاف من القتلى والجرحى وتدمير اربعين قرية كنتيجة له .

على ان نشاط الجزائريين النضالي لم يخمد وشعلتهم المتقدة لم تنطفىء وتصميمهم إزداد شدة على شدة بالرغم مما ترتكبه فرنسا في القمع والتنكيل مالا يكاد يصدق من فنون القسوة والبطش والانسلاخ من شعور الانسانية والرأفة والحق والمنطق ؛ مما عانت شيئاً منه سوريا ولبنان على ما ذكرناه في الفصول السابقة . وهكذا يصح ان يقال انه بدأ في الجزائر عهد جديد للنضال القومي العربي ضد العدوان والبغي والجمود وسوء القصد الذي تعرضت له وتعرضت به الحركة العربية فيها بالتبعية من فرنسا ، وغدا للجزائر مطلب قومي عربي وشعار قومي هو التحرر من ربقة فرنسا والاستمتاع بالاستقـــلال والحرية والشخصية والالتحاق بالحركة العربية العامة والاندماج في اهدافها ، وسرت هذه الروح الى مختلف طبقات المسلمين حتى للذين تجنسوا بالجنسية الافرنسية واندمجوا في الحياة الافرنسية السياسية قليلاً او كثيراً حيث رأينا نوابهم في البرلمان الافرنسي يرسلون تلك الصرخات الداوية منددة بحكم فرنسا وعهدها وظلمها وسوء قصدها نحو عروبة الجزائر ومقوماتها الروحية ومصالحها الاقتصادية وكيانها القومي .

ولقد جاء هذا قوياً صارخاً في الخطاب الذي القاه الدكتور الامين دباغين النائب الجزائري في مجلس النواب في ٢٠ آب ١٩٤٧ كتتمة للصرخات التي ارسلها زملاؤه الثلاثة بسبيل رفض مشروع الاتحاد الافرنسي عبر فيه عن مدى الحركة النضالية وغايتها الصريحة وشدة صلتها بالحركة العربية القومية حيث هتف قائلاً :

ان اخوانه الذين سبقوه في الكلام قد بينوا ما مثله الاستعمار في بلاده المنكودة من كوارث حقيقية من مختلف النواحي ؛ غير انه من الخطأ الجسيم أن يظن أحد بأن رغبة الشعب الجزائري في الاستقلال قد نتجت من فشل هذا الاستعمار في مهمته المادية ؛ إذ ان معنى ذلك انه لو كتب له النجاح في الميدان المادي وتحسن من جراء ذلك مستوى الحياة للشعب الجزائري لكان كافياً لغض نظره عما سببه من ضياع شخصيته وسيادته وثقافته ؛ فلا يجوز ان يظن أحد صواب ذلك ، ولو فرضنا ان فرنسا تمكنت من تحقيق المعجزات في ما تسميه « مستعمرتها الجزائر » ولو فرضنا ان جميع الاضاليل التي يتاجر فيها لفائدة الاستعمار اصبحت حقائق قائمة ، ولو فرضنا ان الشعب الجزائري الذي يزعم هذا الاستعمار انه لم يكن سعيداً في عهده الاستقلالي السابق قد اصبح بفضل الغزو الافرنسي أرقى الشعوب ثقافة وأجودها صحة واكثرها رخاءً فإن كل هذا لن يغير شيئاً من نضاله المستميت في سبيل استعادة استقلاله وسيادته ! ارجو ان لا تنسوا ان الشعب الجزائري أمة بذاتها وانه كان ذا سيادة ، وان عدوان عام ١٨٣٠ هو الذي افقده سيادته ! إن هناك ميلاً الى تناسي هذه الحقيقة بما يتكرر من التوكيدات بأن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا وانها مجموعة ترابية من الجمهورية الافرنسية ؛ غير ان هذه دعاو من جانب واحد لا تقوم على اساس ، وهي دعاو باطلة تكذبها جميع الحقائق التاريخية والجغرافية والجنسية التي لا تتحمل اي مراء . فقد كانت الجزائر بلاداً مستقلة ذات سيادة يسكنها شعب عربي له خصائصه وتقاليده القومية ؛ وكانت دول الارض بما فيها فرنسا تعترف بذلك وتعقد معها المعاهدات المتنوعة وتقف منها موقف الند من الند . ولما اعتدي عليها عام ١٨٣٠ كافحت كفاحاً شديداً دام نحو ثلاثين سنة

وقدمت من الضحايا ما يقرب من المليونين في المعركة . وإذا كان قانون الكثرة وتفوق القوة قد جعل مصير الحرب ضدها فليس معنى هـذا ان حقها في الاستقلال قد سقط وبطل او أن ذلك قـد اعطى فرنسا الحق بأن تدعي بأن الجزائر ارض افرنسية وبان تفكر في فرض اي نظام تشاء عليها . وليس من فرق بين الجزائر وبين اي امة غزاها هتلر او غيره من قبله كبولونيا وتشكوسلوفاكيا ، ولم يغير هذا الغزو شيئاً من حقيقة الامر ، وها هو الاستقلال والحرية يعودان الى هـذه الأمم ، والامر بالنسبة للجزائر سواء بسواء . فهي دولة خاضت ببطولة نادرة حرباً خسرتها ، ولكنها لا يمكن ان تقبل بحال ان تكون نهـــاية تلك الحرب هي نهاية سيادتها لانها ستسترجع حريتها مـن جديد وتعود الى ما كانت عليه . ولا يخامرها ادنى شك في ذلك إن قرناً من الاضطهاد لم يفقد الجزائر شخصيتها ولم ينل مـن تصميمها المتحفز دائماً . وهذا هو السبب الذي من اجله لا يمكننا نحن الجزائريين ان نقبل بأي حل لا يحقق قبل كل شيء احترام هـــذه الشخصية وحرية ثقافتنا العربية وخاصة ضمان استرجاع سيادتنا القومية ضماناً مطلقاً ! ان الدافع للعدوان عام ١٨٣٠ إنما كان الطمع في الغنيمة والغزو ، وحل القضية الطبيعي والحالة هذه هو جلاء القوات الافرنسية عن الجزائر وإعادة اراضيها المغتصبة الى ذويها الشرعيين ومدارسها الى ثقافتها العربية ومساجدها الى دينها الاسلامي . وليس لفرنسا مطلقاً ان تفرض على الجزائر اي قانون ونظام ؛ وان هذا هو ما تقاومه الجزائر وترفضه بكل قواها ، لان شعبها يعتبر نفسه هو وحده المالك لحق تقرير مصيره واختيار نظمه الخاصة التي يديرها سياسته ، ويعتبر ان اعترافه بأي حكومة ولو فرنسا بحق منحه النظم والشرائع هو اعتراف منه بالأمر الواقع الذي اوجده الاستعمار في بلاده ضد حقوقه المقدسة ومصالحه الحيوية ، وتنازل منه عن سيادته الوطنية وهذا ما لن يحدث ابداً . وقد حملنا هـــذا الشعب نحن النواب الوطنيين الجزائريين مسئولية تبليغ الشعب الافرنسي والعالم بأجمعه بأن بـلاده لا تعترف بهذا الأمر الواقع الذي احدثه غزو عام ١٨٣٠ وبأن الجزائر ليست افرنسية ولن تكون كذلك في يوم من الايام ، وبأنها لا تعترف لفرنسا بحق منحها القوانين أو سن المشاريع لها مهما كان نوعها وبأنها لن تقبل بأي حل لا يضمن له قبل كل شيء عودة سيادتها الوطنية إليها !

والخطاب طويل قوي مدعم بالحجج الدولية والحقوقية والمنطقية وممتلىء بالتنديد القارص بظلم فرنسا وعسفها . وقد كان يقاطع من بعض النواب الافرنسيين الذين اغتاظوا أشد الغيظ من حملة النواب الاربعة الشعواء بسبيل اعلان عروبة الجزائر ورفضها نظام الاتحاد . ومن الطريف البالغ في القحة أن بعض المقاطعين كانوا ينعتون الجزائريين بجحود جميل فرنسا ومستعمريها في ما كان من إعمار بلادهم وازدهارها ناسين ان خير هذا إنما عاد اليهم وأنه أدى الى بؤس الجزائريين وجهلهم وفقرهم ومرضهم واسترقاقهم من قبل فرنسا ومستعمريها وتهديد كيانهم العربي والديني بالانهدام بل وهدمه فعلا إلى شوط بعيد .

الفصل الثاني

فرنسا وتونس

- ١ -

حالة تونس قبل النكبة

ومنذ أخذت قدم فرنسا تتوطد في الجزائر أخذت تفكر في القفزة الثانية ، فاتجهت انظارها الى القطر التونسي أولا ؛ وكانت تونس منذ اوائل القرن الثامن عشر تتمتع باستقلالها في ظل دولة تمت في اصلها الى العنصر التركي الذي استولى على الجزائر وتونس في أوائل القرن السابع عشر باسم الدولة العثمانية . وكان رؤساء هذه الدولة يتلقبون بلقب الباي والباشا . وقد تمكنوا بعد فترة من الزمن من الانفراد في الحكم دون الدولة العثمانية . وتعربوا وتأقلموا هم ومن كان معهم ممن يمت الى العنصر التركي ، واندمجوا في القومية العربية التونسية .

وفي أوائل القرن التاسع عشر أخذت الدول الأوروبية تعترف بتونس كدولة مستقلة وتنشىء معها صلات عهدية تجارية وسياسية . وأخذ أمراؤها يسيرون في طريق اصلاح جهاز الحكم وتقوية الجيش وتنظيمه وإنهاض البلاد إقتصادياً واجتماعياً وثقافياً . وقد سارت تونس في عهد امرائها أحمد باشا ومحمد باشا والصادق باشا خطوات حثيثة في هذا السبيل . ففي عهد الأول نظم الجيش وانشىء اسطول بحري وأسست مصانع الأسلحة والذخيرة ودار لصناعة السفن ، وفي عهد الثاني سن دستور حديث يقوم على المبادىء الديموقراطية بحيث سجل بذلك أولية الحكم الدستوري الحديث بين الدول العربية والاسلامية - إذ كان هذا في اواسط القرن التاسع عشر - ، وفي عهد الثالث قام مجلس تشريعي ذو سلطات واسعة ونظم

جهاز الحكم تنظيما عصرياً ومن قانون ضمان حقوق الفلاحين ووضع منهج خاص لتوزيع الأراضي الاميرية على سكان البادية وأصلحت مناهج التعليم ، وأسست المدرسة الصادقيه للعلوم واللغات ، وارسلت البعثات العلمية إلى فرنسا وإيطاليا وغيرهما ، كما استقدم خبراء أجانب وسمح لرؤوس الاموال الاجنبية بالنشاط والاستثمار .

التنافس بين ايطاليا وفرنسا

ومنذ بدأت تونس نهضتها هذه أخذ التنافس يشتد على الاختصاص بها بين فرنسا وايطاليا بنوع خاص . وكانت رؤوس الأموال الأجنبية والخبراء الفنيون من مجالات هذا التنافس ومظاهره كما كانت سبباً في نكبة تونس بالاحتلال الافرنسي، حيث اخذ قناصل الدول المتنافسة يغرون الامراء بمشاريع اصلاحية ، ويورطونهم في الاستقراض بسبيل القيام بها ، ويضعون في عنق البلاد الاغلال واحداً بعد آخر . وقد أدى هذا الى فرض ضرائب مرهقة للشعب نتج عنها ثورة داخلية عنيفة عام ١٨٦٤ واضطر الباي بقوة الضغط الدولي الى قبول لجنة مالية دولية لتوحيد الديون والى رهن ايراد الجمارك مقابل وفائها . وكانت هذه الديون تبلغ عام ١٨٧٠ نحو ١٢٥ مليون فرنك . وظل التنافس قائماً بين ايطاليا وفرنسا على مرافق البلاد وامتيازات مشاريعها ، وحالف النجاح فرنسا أكثر فنالت إمتيازات عديدة بانشاء سكك حديدية وموانٍ ؛ ومن ثم اخذت تعمد الى تعطيل اعمال اللجنة الدولية أو عرقلتها لتزداد أحوال تونس سوءاً وتقتنع الدول بتسليم مقاليد امورها اليها .

على انها لم تترك ذلك للصدف ؛ حيث أخذت تهيء الظروف المساعدة على ما تريد ولا سيما انها رأت قنصل ايطاليا يسعى حثيثاً في منافستها وينال امتياز مصلحة البرق ويتمكن من شراء خط حديدي من شركة انجليزية بثمن كبير . ولقد كان يقع على الحدود الجزائرية بعض الاحداث المخلة بالامن فاتخذت حادثاً منها ذريعة إلى تنفيذ عزيمتها وسارعت الى تسيير بعض قواها من ناحية هذه الحدود من جهة وإنزال قوة بحرية في ميناءي بنزرت وطبرقة من جهة اخرى دون ان تعير احتجاجات الباي واعلانه استعداده لدفع الغرامات وضمان الحدود وأمنها اهتماماً . وفي تاريخ ١٢ مايس من عام ١٨٨١ حوصر الباي في قصره في باردو وأجبر على توقيع المعاهدة التي تعرف بمعاهدة باردو .

فرض الحماية على تونس ومعاهدتها وخطوات فرنسا الاولى

وقد نصت هذه المعاهدة على حق فرنسا باحتلال الأماكن التي ترى احتلالها ضرورياً لحفظ الأمن وتأمين الحدود ، على أن ينتهي الاحتلال حينما تتفق السلطتان الحربيتان الافرنسية والتونسية على قدرة الحكومة الوطنية على تأمين الأمن ؛ وتعهدت فرنسا فيها بتنفيذ المعاهدات النافذة بين تونس والدول الاخرى وتمثيل تونس ورعاية مصالح رعاياها في البلاد الأجنبية من قبل ممثليها وقناصلها ؛ وتعهد الباي بعدم ابرام أي عقد ذي صبغة عامة مع دولة اخرى دون علم فرنسا وموافقتها.

ولم تكتف فرنسا بما فرضته في هذه المعاهدة من شروط ونصوص تنطوي على القضاء على سيادة تونس ، بل أجبرت الباي في نفس السنة على اصدار مرسوم باعتبار المقيم الافرنسي العام – المندوب السامي – الذي سيمثل فرنسا في تونس وزيراً للخارجية كما أجبرته بعد سنتين على توقيع معاهدة اخرى نصت على الاعتراف بحماية فرنسا والتعهد بالقيام بالاصلاحات الادارية والعدلية والمالية التي ترى الحكومة الافرنسية فائدة لها ، وخطت بعد سنة أخرى خطوة خطيرة حيث ذهبت الى تأويل المعاهدتين تأويلا لا يتسق مع النصوص ، وعمدت الى التصرف بالأمور تصرف الدولة تجاه ولاية من ولاياتها ، فأصدر رئيس الجمهورية مرسوماً يمنح المقيم الافرنسي العام نيابة عن الحكومة الافرنسية حق المصادقة على ما يصدره الباي من أوامر ومراسيم وعدم نفاذ أي شيء يصدره من دون موافقته .

وهكذا حلت فرنسا محل الدولة ، وأتاحت لنفسها حكم البلاد حكما مباشراً وجعلت مقيمها الحاكم الأعلى والآمر المستبد فيها بغياً وعدواناً وبقوة الحديد والنار .

– ٢ –

الثورة ضد الحماية

على أن تونس لم ترضخ للواقع . فهاج الشعب منذ وطئت أقدام القوى الافرنسية أراضي بلاده وازداد هياجه مذعلم أن الباي انما أجبر على ماوقعه اجباراً ،

فنشبت الثورة وعمت جميع أنحاء البلاد، وحينئذ أخذت النجدات تتوارد وأخذت السلطات الافرنسية تشتد في القمع والتنكيل وكانت معارك طاحنة استمرت بضعة أشهر واشتهرت القيروان وسوسه وقابس والقلعة الصغيرة وزغوان وتستور وصفاقس خاصة بمقاومتها الضارية وبسالتها وضحاياها . وقد حوصرت الاخيرة حصاراً شديداً براً وبحراً ودمرت تدميرا .

ومع أن القوة غلبت الحق في هذه المعارك التي انعدم فيها التكافؤ فقد ظلت المنطقة الجنوبية خاصة تقاوم القوة الغاشمة بزعامة قائدها الكبير علي بن خليفه نحو ثلاثين عاماً أي الى سنة ١٩١٠ كما ان الشعب التونسي ظل يعلن رفض الحماية التي فرضت عليه بالقوة ويقاومها بكل وسيلة استطاع اليها سبيلا من ثورات واحتجاجات وحركات وطنية ومواقف تمردية ومؤتمرات قومية ، ولم يدع فرصة تمر دون أن ينتهزها في إعلان إرادته وتوكيد رفضه والسعي للتخلص من النير الذي وضع في رقبته بغياً وطمعا واستناداً الى تفوق القوة ، بالرغم مما عمدت اليه فرنسا وظلت تمارسه من القمع والتنكيل والدس والتفريق والاضطهاد والارهاق والتشريد والتشريع في سبيل إخضاع هذا الشعب العربي الأبي .

خطة الاستعمار وهدم الكيان

ومما كان يزيد من شدة الكفاح والمقاومة القومية العربية أن فرنسا استهدفت في تونس نفس الهدف الذي استهدفته في الجزائر وهو قلبها الى مستعمرة افرنسية وتبديل وجهها العربي المسلم بوجه إفرنسي مسيحي ، وانها ظلت تبذل جهودها العظيمة طيلة المدة الطويلة التي مرت والتي تقرب من سبعين عاماً في الوصول الى هذا الهدف وخاصة عن طريق فتح أبواب تونس للمستعمرين ، ونزع أراضي العرب بمختلف الأساليب وإقطاعها لهم ، وتهيئة أسباب استقرارهم وتحكمهم في مختلف شؤون القطر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتشريعية والتنفيذية والثقافية وتسويد اللغة الافرنسية بحيث كادت تصبح لغة الدولة، ومحاربة اللغة العربية والدين الاسلامي بكل الوسائل ، وإبقاء أهل تونس في اطار حديدي من الجهل والفقر والمرض !

الحكم بعد الحماية

ولقد كان في تونس قبل النكبة حكم دستوري ديمقراطي تقوم على اساسه سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية على ما ذكرنا في مطلع الفصل . فكان من أول ما فعله الافرنسيون لاصلاح شؤون تونس إلغاء الدستور وحل المجلس التشريعي وحكم البلاد حكما فردياً إستبدادياً . وقد ستروا بادىء المباشرة في الحكم بنقل السلطات إلى يد الباي الأسير الذي قيدوه بقيود جعلت هذه اليد صورة لا تتحرك إلا بما يريدون، سواء اكان ذلك في الشؤون التشريعية أم الادارية أم المالية أم القضائية . وحينما توطدت أقدامهم وكثر المهاجرون والمستعمرون أنشأوا مجلساً إستشارياً خاصاً بالافرنسيين لتنسيق جهود الجاليات الافرنسية والمصالح الحكومية التي يسيطر عليها الأفرنسيون في صدد توطين المهاجرين وتأمين مصالحهم وسيطرتهم على الشؤون الزراعية والتجارية والصناعية . ومع انه أدخل في هذا المجلس مؤخراً عنصر تونسي فقد جاء هذا على منتهى ما يمكن من الاستهتار حيث جعل عدد اعضاء المجلس (٥٢) منهم (٣٦) إفرنسيون ينتخبون إنتخاباً من الجاليات الافرنسية و (١٦) تونسيون يعينهم المقيم العام تعييناً ... وتعالت الأصوات المستنكرة لهذا الوضع العجيب فأنشىء مجلس جديد باسم المجلس الكبير ، غير أنه حفظت الأكثرية فيه للافرنسيين فضلاً عن جعل قراراته منوطة بمصادقة المقيم العام وموافقة الحكومة الأفرنسية !

وعلى كل حال فقد ظل المقيم العام صاحب السلطة التشريعية حيث كان وما زال هو الذي يهيء المراسيم ويحمل الباى على توقيعها. وما يوقعه الباى بسبب ما يصدره هو بصفة قرارات ولوائح تكون في منزلة واحدة مع المراسيم مع أنها في الاصل تفسير لها .

الادارة

ولقد كان يتولى السلطة التنفيذية قبل النكبة مجلس وزراء ، فشلت السلطات يد هذا المجلس ، ووضعت بجانب كل وزير مديراً إفرنسياً بيده السلطة النافذة ، وأحدثت منصباً باسم أمين السر العام مرتبطا بالمقيم العام وربطت به المديرين الافرنسيين المذكورين ، فغدا أمين السر العام والمديرون هم المباشرين للسلطات التنفيذية فعلاً وغدا المقيم العام بمثابة الرئيس الاعلى لهذه السلطات ، فضلاً عن أنه كان وسيما يشغل منصب وزير الخارجية على ما ذكرناه قبل . وهكذا جمع المقيم العام بيده جميع السلطات الاجرائية الداخلية والخارجية ، اما الوزراء التونسيون فليس لهم من كل مناصبهم إلا الأسم والمرتب . ويقتصر عملهم على جلسة في كل شهر يدعوهم اليها المقيم العام باسم مجلس الوزراء ، تهيأ مواضيعها وقراراتها من قبل أمين السر العام ، فضلاً عن أنها ذات صفة إستشارية . . . ومع أنه أدخل شيء من التعديل على هذا النظام عقب الحرب الأخيرة نتيجة للحركة الوطنية حيث منح مجلس الوزراء والوزراء التونسيون بعض الصلاحيات إلا أنه جعل للمديرين الافرنسيين حق حضور هذا المجلس والأشتراك في الرأي فيه ، وأبقى لهم حقهم الأول بحيث لا تأخذ الأوامر والرسائل التي يصدرها الوزير صفة قانونية وتنفيذية الا بعد توقيعهم عليها ، كما أبقيت رابطتهم بأمين السر العام وأبقيت سلطات هذا ورابطته بالمقيم العام على ما كانت عليه من قبل .

وقد جمعت في يد هذا الموظف جميع السلطات الادارية . فهو الذي يصادق على المراسيم بعد توقيع الباي عليها ولا تنفذ الا بعد توقيعه . وهو الذي يصادق على جميع القرارات الصادرة من الوزير الاكبر وبقية الوزراء والمديرين ولا تنفذ الا بعد توقيعه . وهو الذي يشرف على هيأة الموظفين وعلى المصروفات العامة . وهو الذي يضع المناهج الاقتصادية ويسهر على تنفيذها . وليس للوزراء التونسيين ان يتصلوا بالوزير الاكبر الا عن طريقه !

وهكذا كان التعديل صوريا بل شراً لأن سلطات الوزارة قبله لم تكن مقيدة

بنصوص رسمية وإنما كانت معطلة تعسفاً .

وإلى هذا فهناك إدارات تعتبر إفرنسية حيث لا يوجد لها وزارات كالأشغال العامة وإدارة البرق والبريد وادارة المعارف، فرؤساء هذه المصالح وجل موظفيها افرنسيون .

وقد وضع الى جانب كل عامل اداري في القطر مراقب مدني افرنسي، وجعل لهم الامر كله فلا ينفذ شيء من اجراءات وقرارات العمال التونسيين الا بمصادقتهم ولهم نفوذ عظيم وهم مسؤلون أمام المقيم العام وحده ويمثلونه . وقد اشتهروا بجبروتهم حتى لقبوا بقياصرة الآفاق .

وقد سلخت المنطقة الجنوبية من القطر عن السلطة التونسية بالمرة ، واعتبرت منطقة عسكرية يدير شؤونها ضباط خاضعون لادارة الشؤون الأهلية التابعة للمقيم العام . وقد لمتاز الحكم العسكري في هذه المناطق بجبروته واضطهاده للسكان .

والوضع العام للحكم أن الوزراء والمديرين مسئولون أمام المقيم العام الذي يخضع لوزارة الخارجيـــة الافرنسية ، وان فرنسا تحكم في تونس كما تحكم في مستعمرة افرنسية ضاربة بمعنى الدولة القائمة فيها وما اعترفته لها ولأهلها من حقوق عرض الحائط .

وقد مالت دوائرها في المركز والملحقات بالموظفين الافرنسيين من جميـــع الدرجات استهدافا لاضعاف العنصر التونسي في الحكم وصبغه بالصبغة الافرنسية فضلاً عن ايجاد مجال الرزق لجيش جوار من المستوظفين الافرنسيين بحيث كادت تونس تصبح مستعمرة موظفين افرنسيين . وقد بلغ عددهم في سنة ١٩٤٧ خمسة وعشرين الفا. وهو رقم هائل لا يكاد يصدق لولا أنه مستند الى الاحصاآت المنشورة. وتكاد وظائف التونسيين قاصرة على الدرجات الثانوية والتافهة اذا استثنينا الوظائف الحكومية العليا التي لا مناص من قيام تونسيين عليهـــا مثل الوزارات والعمال الاداريين (الحكام الأداريون) الذين جعل المراقبون والمساعدون والمستشارون الافرنسيون هم اصحاب الشأن في عملهم . ويتقاضى الموظفون الافرنسيون مرتبات عالية وعلاوات وامتيازات متنوعة ، فضلا عن استثمار وظائفهم في الاثراء وعن الغطرسة والصلف ، مما يقاسي منه التونسيون الشدائد ومما شاهدنا بعض صوره في

سوريا ولبنان . ومن تحصيل الحاصل ان تصبح اللغة الافرنسية هي لغـــة التعامل والتسجيل والمراسلات والمراجعات في دوائر الحكومة وان يغدو مكان العربيـة فيها ضيقا أو معدوما ..

المحاكم

وقد أنشئت محاكم افرنسية الى جانب المحاكم التونسية، ومنحت اختصاصات واسعة ، وحرم على القضاء التونسي النظر في قضايا الأجانب والأفرنسيين والقضايا التي يكون فيها التونسيون مع الأجانب طرفا ثانيا ، كما حصر فيهـــا حق فصل المنازعات المتعلقة بالعقارات والقضايا السياسية . هذا فضلا عن أن المحاكم التونسية نفسها قد نظمت وفق قوانين افرنسية وعهد برأسة كثير منها الى قضاة إفرنسيين وحصرت مهام نيابة الحق العام فيهـا في نائب عـــام افرنسي ووكلاء افرنسيين وتونسيين يأتمرون بأمره . وكثيراً ما كانت المحاكم الافرنسية اداة ارهاب على الحركة القومية والنشاط السياسي حيث حصرت القضايا المتصلة بذلك فيهـــا . وفضلاً عن هذا فقد خوّل المقيم العام حق الامر باعتقال أي شخص لمـــدة سنتين قابلتين للتجديد دون أي محاكمة ، فكان هذا تتمة لاحكام نطاق الارهاب .

الارهاب

ولقد شهر سيف الارهاب والأرهاق على الحريات العامة بسلسلة من المراسيم واللوائح الظالمة . فالصحافة العربية مقيدة بقيود شديدة تجعلها معرضة لاقسى العقوبات والاجتماعات كذلك ، وقد قيدت حريـة تنقل التونسيين في داخل بلادهم بقيود شديدة ، وقد سنت قوانين الخدمة الاجبارية بحيث يكون التونسي مجبراً على أي عمل عام تعلنه السلطات انه كذلك بالاجر والشكل الذي تراه وتحت طائـــلة العقوبات الشديدة . وكثيراً ما اعلنت السلطات صفة العمل العام لمشاريع استثمارية واستعمارية وزراعية تخص المستعمرين الافرنسيين واضطرت التونسيين الى خدمتها.

المستعمرون والاراضي

ولقد أنشأت السلطات الافرنسية في أول ما أنشأته ادارة خاصة باسم مصلحة الاستعمار والفلاحة وأناطت بها تنظيم توزيع الاراضي واستثمارها ، ثم أخذت تنفذ سياستها المذكورة على يد هذه المصلحة . ومن أول ما فعلته الغاء مشروع توزيع الاراضي الاميرية على الفلاحين الذين لا أرض لهم ، والذي بدىء بتنفيذه قبل النكبة وانتزعت ما وزع منها من الفلاحين وأخذت توزعها على المستعمرين . وتبلغ مساحتها نحو مليون هكتار أي عشرة ملايين دونم ونسبتها لمجموع الاراضي الزراعية هي اثنا عشر من المئة . ثم اصدرت تشريعا الحقت بموجبه الاراضي البور بأملاك الدولة وأخذت تتعسف في تحديد هذه الاراضي وتدخل فيها مساحات واسعة من املاك الاهلين المجاورة لها ، وتقطعها تدريجيا الى المستعمرين ايضا . وتبلغ مساحة هذه الاراضي ضعف مساحة الأولى . وفعلت مثل ذلك بأراضي الغابات التي تبلغ مساحتها نيفا ومليونا من الهكتارات ، وتعسفت كما تعسفت في تحديد اراضي البور فأدخلت مساحات واسعة من املاك الاهلين المجاورة ايضا . وعهدت بحراسة الغابات والاشراف على استثمارها لجيش من الموظفين الافرنسيين الذين كانوا كابوسا شديد الوطأة والبغي على الناس في فرض الغرامات الفادحة تحت ستار الحراسة والتفتيش وحرمانهم من الانتفاع بشيء من احراشهم ! ووضعت يدها على مصادر مياه الري في المنطقة الجنوبية واعتبرتها ملكا للدولة ثم اخذت توجه صرفها الى اراضي المستعمرين في هذه المنطقة فيسرت لهم بذلك حظا سعيداً ببساتين النخيل الواسعة . والحقت اراضي المشاع التي كان يتصرف فيها القبائل بأملاك الدولة أيضا وأخذت تقطع ما تشاء منها للمستعمرين ، واخمدت بالحديد والنار كل حركة صدرت من القبائل بسبيل الدفاع عن اراضيهم ومورد رزقهم ، وهذه الاراضي تبلغ نحو أربعة ملايين هكتار ! ولم تتورع عن اراضي الاوقاف العامة والخاصة ، ففرضت على مصلحة الأوقاف ان تضع تحت تصرف مصلحة الأستعمار مساحة لا تقل عن الفي هكتار سنويا منذ سنة ١٨٩٨ وجعلت لهذه المصلحة

حق اختيار الاراضي التي توضع تحت تصرفها منها مقابل ثمن بخس يقدره خبير افرنسي ، ومنعت وقف الأراضي على المعاهد الدينية وحصره بالعقارات وأباحت بيع الاراضي الوقفية دون اعتداد بالشروط الوقفية . وهكذا نظمت سلسلة نهب اراضي تونس على اختلاف انواعها دون مارادع من شرف او ضمير او حق أو قانون لاحلال المستعمرين الافرنسيين فيها محل أهلها .

ولأجل تسهيل توزيـــع الاراضي على المستعمرين وإستثمارها أنشأت صندوقاً باسم صندوق الاستعمار رأس ماله من ميزانية الدولة ومن قروض على حساب هذه الميزانية ! ومن الأقساط التي تستوفى ثمناً للاراضي المقطعة مـــع التنبيه أن ثمن الأراضي الذي كان يقدر تافه جداً فضلاً عن تقسيطه لعشر سنوات !

وقد بلغت مساحة الاراضي المقطعة للمستعمرين حتى سنة ١٩١٤ (٧٥٧٠٠٠) هيكتاراً أي سبعة ملايين وسبعمئة الف دونم ومن سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢٨ (١٩٧١٦٠) هيكتاراً حسب الاحصاء الرسمي واستمرت هـذه السياسة الباغية بنفس القياس .

والأراضي الصالحة لزراعة الحبوب في تونس تبلغ نحو ثلاثة ملايين هيكتار لم يبق منها في أيدي التونسيين إلا مليون .

ولقد كان من نتائج هذا النهب المنظم الفاشم ان عم الفقر بين طبقات الفلاحين وكثرت فيهم البطالة وانخفض مستوى معيشتهم وأصبحت تغذيتهم سيئة وصاروا على شفا المجاعات التي تنتشر انتشاراً مريعاً عند اي أزمة من الأزمات .

- ٦ -

المعادن

وفي تونس معادن متنوعة ومنها ما هو غني وجيد النوع من حديد ورصاص وزنك ومنغنيز ونحاس وبروم وفسفات وبوتاس . وقد حصرت السلطات امتيازاتها بالافرنسيين مقابل إيجار زهيد . ومن عجيب ما تصنعه أنها تمنح شركات الاستثمار المعدني مساعدات مالية من الميزانية إذا حققها عجز مالي فضلاً عن ما تمنحها إياه من

مساعدات متنوعة . وقـــد كانت الصادرات المعدنيه في سنة ١٩٤٦ نصف قيمة صادرات تونس ولم تقل قبل هذه السنة عن ثلثها . وما يستخرج من مناجم تونس يشغل ثلاثة أرباع حمولة كل وسائل النقل في تونس . وفي هذا توضيح لأهمية الثروة المعدنية التونسية المنهوبة .

الصناعات

ولقد كان في تونس بعض الصناعات الوطنية فاستنت السلطات سياسة جمركية كادت تقضي عليها . وتوضع شتى العراقيل في سبيل إستفادة التونسيين من الآلات الصناعية الحديثة . وكان من هـذه السياسة ان نالت الصناعات والسلع الافرنسية إمتيازات واستثناآت متنوعة فغدت هي المتحكمة في السوق التونسية تحكماً إستغلالياً فظيعاً ، وحميت بقوة هذه الامتيازات والاستثناآت من المنافسة الأجنبية . ومما تؤدي اليه السياسة الافرنسية الاقتصادية اضطرار المنتج التونسي على ضيق نطاق انتاجه الى بيع نتاجه للتجار والشركات والمصدرين الافرنسيين بالأثمان البخسة وعدم ترك اي مجال للانتفاع به انتفاعاً حراً .

التجارة

ولما كانت التجارة والصناعة والزراعة الصالحة المنتجة في أيدي الافرنسيين فقد عمدت السلطات إلى جعل معول الميزانية على الضرائب غير المباشرة التي يتحمل اكثر عبئها المستهلكون الذين غالبهم تونسيون . ولقد بلغت هـــذه الضرائب في سنة ١٩٤٨ ثلاثة وسبعين في المئة من مجموع إيراد الموازنة . وهكذا ضمنت جـل الغنم للافرنسيين وأعفتهم من الغرم ونظمت بهذا الاسلوب الباغي استنفاد ما في ايدي التونسيين من قليل الايراد .

- ٧ -

التعليم

ومع ضخامة أرقام الموازنة حيث بلغت سنة ١٩٤٨ نحو عشرة مليارات من الفرنكات فإن حظ المرافق العامة وخاصة المرافق العائدة للتونسيين ضئيل جداً .

فلا يحظى من اطفال العرب الذين هم في سن التعليم بمقاعد في مدارس الحكومة إلا عشرهم او اقل . ففي سنة ١٩٤٧ مثلاً كان عدد هؤلاء نحو ستين الفاً في حين يقدر عدد الذين هم في سن التعليم بسبعمئة الف ، لأن عدد التونسيين نحو ثلاثة ملايين ونصف . هذا في حين أن عدد أبناء الاوروبيين الذين هم في مدارس الحكومة المخصصة لهم كان في هذه السنة نحو ستة وخمسين الفاً والاوروبيون يبلغون نحو ربع المليون ! ومنهـــج التعليم في المدارس الحكومية العربية إفرنسي صرف لا يكاد يوجد فيه للعربية والدين الاسلامي مكان تمشياً وراء فكرة تغيـــير الوجه العربي الاسلامي من تونس وجعله إفرنسياً .

وتضع السلطات شتى العراقيل في سبيل محاولات التونسيين لتلافي النقص والخطر بجهودهم الخاصة على سوء حالتهم المادية وضعف وسائلهم . وقصارى ما امكنهم إنشاء عدد محدود من المدارس الابتدائية في المدن وبعض الكتاتيب الأولية في القرى والبوادي لا تتلافى إلا شيئاً ضئيلا من ذلك النقص والتقصير . ومع انه يوجد بعض المدارس الثانوية في تونس إلا ان جل مقاعدها مخصص للافرنسيين كما ان منهجها إفرنسي ومكان العربية فيها ضيق جداً ولولا المدرسة الصادقية الثانوية التي تعيش على اموال الوقف لما كان هناك شباب تونسي مثقف بعض الشيء بثقافة عربية اسلامية . وليس في تونس تعليم عال . وتوضع العراقيل الكثيرة في وجه الذين يرغبون في إرتياد مناهله في اوروبا . وكل ما في الامر ان السلطات تسمح لبعض الشبان بالسفر الى اوروبا . في نطاق ضيق وشروط عسيرة .

وعناية السلطات بالمرافق الصحية والاجتماعية بالنسبة للعرب لا تخرج عن هذا الاطار وتلك الفكرة بما تبدو مظاهره وآثاره في انتشار امراض السل والتراخوما والبطالة وسوء المسكن والغذاء وضعف البنية والحياة البائسة التي يرتكس فيها السواد الاعظم منهم ...

التجنس

وقد فتح باب التجنس للتونسيين لتحويلهم الى رعايا افرنسيين كوسيلة من وسائل الهدف الذي استهدفوه ، وجعلته مغرياً بالمنح والامتيازات وميسراً بأخف

الشروط ، في حين حرم على الأجانب التجنس بالجنسية التونسية ؛ حتى لقد اصدر تشريع يقضي باخراج الاجانب الذين ولد اجدادهم في تونس من الرعوية التونسية والحاقهم بالجنسية الافرنسية !

وقد نشط كذلك التبشير في اواسط المسلمين وخاصة قراهم وباديتهم كوسيلة اخرى من وسائل ذلك الهدف هدف تبديل وجه تونس العربي المسلم ، ويسرت الوسائل والحماية لبعثاته ومنحت المساعدات المالية الكبيرة ..

وقد انشئت كتائب تونسية تحت قيادة الافرنسيين وتنظيمهم على أساس التطوع والاغراء ، وكان عددها يزاد حين الحاجة . وكثيراً ماحاربت الى جانب الافرنسيين في اوروبا وغيرها ، واستخدمت في مصالحهم ومآربهم الاستعمارية . وقد جعلت هذه الطريقة وسيلة اخرى من وسائل ذلك الهدف حيث يكاد المتجند احياناً في حياته الطويلة التي يحياها في الوسط الافرنسي والنظام الافرنسي ينسى لغته ودينه وعاطفته !

- ٨ -

النضال الوطني

ولقد ابى التونسيون كما قلنا ما اريد لهم ولبلادهم من استعمار واذلال وارهاق وتبديل وجه ودين ، فأخذوا منذ بدء النكبة يقفون موقف المناوىء المناضل ويقومون بالحركات الوطنية الثورية . وقد ذكرنا ما كان من ثورات عنيفة في السنة الاولى من الاحتلال ، وما كان من ثورة ابن خليفة التي امتدت ثلاثين عاماً في المنطقة الجنوبية ولم تفتر إلا في سنة ١٩١٠

زعامة علي باش

ولقد اخذت حركة المقاومة والنضال تدخل في نطاق التنظيم الوطني منذ بدء القرن الحالي ؛ وكان من اول من تولوا زعامة الحركة الوطنية الزعيم علي باش . ومن

ابرز واقدم حوادث هذه الحركة مظاهرات عام ١٩١١ وما كان فيها من اشتباكات دموية بين الجماهير وقوى الاحتلال بسبيل الاحتجاج على عسف السلطات الافرنسية. وقد أعلنت السلطات الأفرنسية بمناسبتها الأحكام العسكرية التي ظلت البلاد تحت كابوسها إحدى عشرة سنة، واضطر الزعيم وكثير من أنصاره الى الفرار إلى خارج البلاد وخاصة إلى الأستانة فأصدرت السلطات امراً بمنعهم من العودة إلى وطنهم.

وفي اثناء الحرب العالمية الاولى اعتقل اكثر من بقي من رجال الحركة او الذين يمتون اليهم. ومع ذلك فقد ثار سكان الجنوب ثانية عام ١٩١٥ وخاصة قبائل بني زيد ثورة عنيفة استمرت سنتين وكلفت الافرنسيين كثيراً من الجهد والخسائر والضحايا.

الحزب الحر الدستوري وزعامة الثعالبي

وعقب هدنة الحرب العالمية نشأ الحزب الحر الدستوري واضطلع منذئذ بالحركة الوطنية، وأخذ ينشط في سبيل تنظيم صفوف التونسيين وتوجيههم نحو غاية الحزب وهي الغاء الحماية واستعادة السيادة؛ وممن انضم الى الحزب الامير محمد المنصف الذي ولي العرش وكان ولياً لعهده. واخذ الزعيم الثعالبي وغيره ممن كانوا في خارج تونس ينشطون ويقدمون العرائض لمؤتمر الصلح ويبثون الدعوة الى قضية تونس ويلفتون اليها الانظار وينشرون الرسائل الخ.

ولقد ضاقت الحكومة الفرنسية ذرعاً بالزعيم الثعالبي فاعتقلته في باريس وارسلته الى تونس للمحاكمة بتهمة التآمر مع الاعداء؛ فأثار هذا العمل هياج الشعب، وتفاقم الخطب حتى اضطرت السلطات الى اطلاق سراح الزعيم، وحينئذ تولى بنفسه قيادة حركة الحزب التي اخذت تقوى وتعم وتنذر بانفجار عام.

وتشجع الباي محمد الناصر فأخذ يؤيد مطالب الشعب ويهدد بالتخلي عن العرش إذا لم تستجب فرنسا اليها، وتوترت الحالة بينه وبين المقيم العام حتى ارسل هـذا قوة حاصرت القصر وكان ذلك عام ١٩٢٢ فهاج الشعب ايضاً وقام بمظاهرات عامة في كافة المدن التونسية حتى اوشك الحال ان ينقلب الى ثورة عاصفة فاضطرت السلطات ثانية الى النكوص والتهدئة، وقطعت وعوداً صريحة بإجابة المطالب الوطنية. وقد

زار ميلران رئيس الجمهورية الافرنسية تونس بسبيل التهدئة ايضاً .

غير أن فرنسا لم تلبث ان اخلفت بوعودها واخذت تسلك سبيل القمع، فعطلت الصحف الوطنية ، ومنعت الاجتماعات العامة ، واعتقلت عدداً كبيراً من رجال الحركة وشبابها. واستطاع بعضهم ومن جملتهم الزعيم الثعالبي الافلات. وكانت فترة خمدت فيها الحركة الوطنية بعض الشيء نتيجة للاضطهاد الباغي وتشتت رجال الحركة وقادتها . ولقد اجتمعنا مراراً واحياناً مدة طويلة مع الزعيم الثعالبي في فلسطين اثناء زياراته لها وإقامته فيها ، فكنا نسمع ما يدمي القلب من بلاء تونس الشهيدة وشدة قسوة فرنسا ومجانبتها كل حق ومنطق في ما كانت تنتهجه من مناهج وتتصرف من تصرفات بسبيل تحقيق هدفها الباغي .

الحزب الحر الدستوري بزعامة ابي رقيبة

على ان الحركة لم تلبث ان انبعثت من جديد على يد الشباب الذين اخذوا ينشطون ويملأون الفراغ ، وانتعشت خاصة في عام ١٩٣٠ بسبب حادثين وقعا فيه . فقد عقد الافرنسيون مؤتمراً تبشيرياً للنظر في نشر النصرانية في تونس وسائر بلاد المغرب العربي ، وكان من استهتارهم ان وصفوه كحلقة من سلسلة الحروب الصليبية التاسعة . وقد اخذت السلطات الافرنسية تستعد لحفلات كبيرة تقام بمناسبة مرور خمسين عاماً على احتلال تونس . فتداعى الوطنيون الى مؤتمر كبير قرروا فيه استنكار العملين واستطاعوا ان ينشروا دعاية واسعة ضدهما ويؤلبوا الرأي العام عليهما ، مما اضطر السلطات الى العدول عن إقامة حفلات ذكرى الاحتلال . ولكنها لم ترد أن تبدو مهزومة فاعتقلت فريقاً من الشباب وقدمتهم للمحاكمة فثارت ثائرة الشعب وقامت مظاهرات صاخبة فجنحت ثانية الى المسايرة وافرجت عن المعتقلين والغت محاكمتهم . فكان هذا مما قوى نشاط الحركة الوطنية الجديدة التي تزأسها الزعيم ابو رقيبه .

وقد اهتمت السلطات سنة ١٩٣٢ لتشجيع حركة التجنس واستصدرت فتاوى من رجال الدين الموالين لها بأن التجنس لا يخرج عن الدين فتصدت الحركة الوطنية

لهذه المحاولة وعاضدها الشعب فضرب بفتاوى المشايخ عرض الحائط واخذ يمانع في دفن المتجنسين في مقابر المسلمين، وادى الموقف الى اشتباكات عديدة نفخت كذلك في الحركة الوطنية روحاً وقوة حتى ان السلطات اضطرت الى انشاء مقابر خاصة بالمتجنسين مما عد نصراً عظيما للحركة الوطنية . وكان من اثر الضغط الروحي العام ان اخذ المتجنسون يطالبون بالعودة إلى تونسيتهم .

- ٩ -

الميثاق القومي واثره

وقد أعيد تنظيم الحزب الحر الدستوري من جديد . وعقد القائمون بأمره مؤتمراً في عام ١٩٣٣ وضعوا فيه ميثاقاً قومياً يتضمن تحرير البلاد من الافرنسيين وإستقلالها إستقلالاً تاماً ؛ وصار هذا الميثاق هو شعار الحركة الوطنية منذئذ . وقد سارعت السلطات إلى حل الحزب ، غير أن الوطنيين لم ينهزموا فعقدوا مؤتمراً ثانياً عام ١٩٣٥ وخرجوا منه بتنظيم حزبي جديد يقوم على أسس شعبية ونشطوا في عقد الاجتماعات العامة والتطواف في المدن والقرى والبوادي . وقد جاء في هذه الظروف مقيم إفرنسي عام فحاول تخدير الشعب بما اظهره من إستعداد للتوسعة على الحريات ولكن الحزب ظل متمسكاً بالميثاق القومي فلم يلبث المقيم العام أن نكص على عقبيه وسار في سياسة مضادة لما اظهره ، وقرر القضاء على الحركة الوطنية ، فاعتقل أبرز أعضائها وقادتها ونفاهم الى الصحراء الجنوبية ، فأثار هذا العمل الشعب وعمت الاضطرابات البلاد .

القمع والنضال السري

واعلن الاضراب وحدثت اشتباكات دموية . وركبت السلطات رأسها فاشتدت في القمع والاضطهاد والارهاب فكانت محنة قاسية استمرت نحو سنتين دون انقطاع فلما أجد الجو الدولي بالتجهم بسبب تنمر موسوليني استبدل المقيم العام،

فجنح الجديد الى التخفيف فأطلق سراح المعتقلين ووسع على الناس في الحريات ؛ فتمكن الحزب من استكمال تنظيم صفوفه في هـــذه الفرصة ؛ وانتشرت شعبه بسرعة كبيرة في مختلف أنحاء البلاد ، ورافقها حركة تشكيلات الكشافة والنقابات تحت لواء الحزب ، فأصبح الشعب جميعه تقريباً متكتلا في تشكيلات الحزب . وعمدت فرنسا الى سياسة التخدير فأرسلت أحد وزرائها لدرس الحاله وأعلن ضرورة إصلاح الادارة ؛ ولكن الوعد ظل حبراً على ورق وظلت القافلة تسير وفق المنهج الاستعماري المرسوم ، فدعا الحزب الى مؤتمر ثالث عـــام ١٩٣٧ تقرر فيه خطة المقاومة والعنف ؛ فقابلت فرنسا القرار بالقمع والتنكيل واخذت تعتقـل رجال الحزب أثناء تجولاتهم وتمنع الاجتماعات العامة ، فأدى هذا الى صدام ثم الى اشتباكات دامية واسعة المدى عام ١٩٣٨ ، وقامت مظاهرات عامة ظهرت فيها قوة الحزب واشتدت السلطات في القمع والمطاردة والاعتقـالات ، واعلنت الأحكام العرفية وغصت السجون والمعتقلات بالوطنيين وانتشر الجيش يعيث فسادا في البـلاد ، ويعتدي على الناس في الشوارع وينتهك حرمات البيوت . غير أن هذا لم يكن ليقضي هذه المرة على الحركة التي شملت جميـع الطبقات وقويت شعلتها ؛ فاستمر الكفاح وأخذ يصطبغ بصبغة عنيفة لم تعرف من قبـــل ، وكان يزداد قوة كلما أزدادت السلطات بالعسف والبطش ؛ وكانت اضطرابات ووقائـع دموية شديدة بالرغم من الأحكام العسكرية واعتقال الألوف واستمرار سياسة التنكيل والارهاب

وقد عمد من استطاع النجاة مـــن رجال الحزب الى التنظيم السري ونشر الاذاعات السرية لاذكاء الروح الوطنية ، وكان تنظيما قوياً وثيقاً يدل على تصميم القائمين به وبراعتهم . وارسلت فرنسا لجنة تحقيق نيابية تقدم اليها وفود البـلاد بطلب اطلاق سراح المعتقلين وتحقيق مطالب الشعب . وقد استمرت هذه الحركة القوية التي بدأت قبل الحرب العالمية الثانية بالرغم من اعلان الحرب .

بعد انهيار فرنسا

ولما انهارت فرنسا جنح عمالها الى التهادئة والمسايرة بعض الشيء فتنفس الناس

الصعداء ورأى الوطنيون ان الوقت قد حان لاعلان بطلان الحماية والمناداة باستقلال تونس . وقدم الحبيب ثامر الذي تولى التنظيم السري أثناء موجة الارهاب الشديدة عريضة للباي يطلب فيها إعلان سقوط الحماية واطلاق سراح المعتقلين في البلاد وفي فرنسا كما هيئت عرائض مماثلة من مختلف الطبقات وحملتها وفودهم ؛ فاعتقلت السلطات الوفود قبل مقابلتهم للباي فجدد هذا حالة التوتر وبدأت حركة تخريبية وثورية قوية ، فأعتقلت هيئة الحزب فقامت مقامها هيأة ثانية فاعتقلت فقام مقامها هيأة ثالثة وظلت الحركة نشيطة والاضطرابات مستمرة .

- ٩ -

وفي سنة ١٩٤٢ ارتقى العرش محمد المنصف الذي هو من اعضاء الحزب الدستوري فتعززت الحركة الوطنية كثيراً . وقد قدم الى حكومة فيشي طلباً بإحترام السيادة التونسية وإجابة رغائب الشعب التي كانت أصواته ترتفع بالمطالبة بها فوعدته بالانجاز ولكنها لم تف . وكان هذا من أسباب تبييت الغدر له . ونزلت في هذه السنة جيوش المحور إلى تونس بمساعدة القادة الفيشيين ؛ وقام المعتقلون بحركة تمرد ، وتمكنوا من فتح باب السجن ولكنهم لم ينجحوا في حركتهم . وقد سايرت السلطات الموقف فأطلقت سراحهم كما اطلقت سلطات المحور سراح المعتقلين في فرنسا ومنحتهم حرية الانتقال ، فذهب بعضهم الى ايطاليا والمانيا ، وكانت فرصة عظيمة للحركة الوطنية في داخل البلاد وخارجها ازدادت فيها قوة ونشاطاً وأملا وانطلاقاً وتضامناً . وحاول الباي أن يخطو الى تحقيق المطالب القومية بنفسه ؛ ولكن الخطوة عقمت بإحتلال الحلفاء تونس وصيرورتها ميداناً من ميادين الحرب بين الحلفاء والمحور .

ووجدت السلطات الافرنسيه الديغولية التي برزت تحت جناح الحلفاء والتي سمت نفسها بفرنسا الحرة كذباً وزيفاً الفرصة سانحة للقضاء على الحركة الوطنية فخلعت الباى ونفته وقامت بحركة قمع إجماعي في كافة أنحاء القطر ، وأعدمت المئات بدون محاكمة كما القت بالالوف في غياهب السجون والمعتقلات النائية للارهاب وإثارة الرعب .

على ان الشعب لم يهن والحركة لم تخمـــد ، وقامت ثورات مسلحة في بعض الانحاء لتعبر عن إرادة تونس الحرة المناضلة وان لم تستطع زلزلة الافرنسيين عن جورهم وغدرهم ، ولا سيما إنهم قووا بما احرزه الحلفاء من نصر على المحور واستعادوا بعض ما كان لفرنسا من مكانة بينهم .

- ١٠ -

وفي سنة ١٩٤٥ استطاع بعض قادة الحزب الافلات مـــن تونس الى مصر متحملين اقسى ما يمكن ان يتحمله امرؤ في سبيل وطنه وأخذوا ينشطون فيها في سبيل الميثاق القومي .

ولقد استمرت السلطات على نهجها في البطش والقمع للقضاء على الحركة دون ما خجل ولا تورع بما اذاعته فرنسا وحلفاؤها من مبادىء الحرية ومناهضة الاستعمار واغمض الحلفاء أعينهم عن هذا الجور الرهيب لان اكثرهم كان كاذباً مضـللا فيما يذيعه . وقد تكررت الاضطرابات في تونس ضد ذلك الغدر وهذا الاغماض .

المؤتمر الكبير والميثاق القومي

وعقد رجال الحركة سنة ١٩٤٦ مؤتمراً شهده عدد كبير من علية القوم ورجال الحركة وجددوا العهد لميثاقهم بإعلان بطلان الحماية والكفاح في سبيل الاستقلال والانضمام الى قافلة الحركة العربية العامة عن طريق الجامعة العربية التي كانت قد نشأت وأخذت تمثل في دور قيامها أهداف الحركة العربية القومية ، واخذوا وما يزالون يعملون بكل وسعهم في سبيل تحقيق ميثاقهم في الداخل والخارج دون وهن ولا كلل بالرغم مما تسلكه فرنسا فيهم من سياسة الشدة والعنف حيناً والتخدير حيناً آخر وكان من هذا الأخير التعديل المزيف الذي ادخل عـــلى نظام مجلس الوزراء الذي ظنت فرنسا انه قد يرضي الشعب مع بعده كل البعد عن رضائه لأنه لم يعد يرضى عن ميثاقه القومي بديلا ولا ينخدع عنه باي خدعة .

وهكذا تسير تونس في سبيل هدفها القومي وتنضم الى قافلة الحركة العربية التحريرية العامة ، وتتصارع مع قوى البغي والعدوان الذي اصبح طابعاً مشؤوماً للسياسة الافرنسية ؛ وهي صارعة له ان شاء الله بعد ان انقدت فيها الشعلة وعمت بنورها البلاد .

الفصل الثالث

فرنسا ومراكش

- ١ -

حالة مراكش قبل النكبة

ومنذ أن أنشبت فرنسا مخالبها بتونس انصرفت إلى التفكير الجدي في القفزة الثالثة . أي إنشاب هذه المخالب بمراكش التي كانت تحرك مطامعها قديماً لتتم بذلك إحكام السلسلة التي اعتزمت على غل أقطار المغرب العربي بحلقاتها ، وقلبها جميعاً الى مستعمرات إفرنسية .

ولقد لعبت المملكة المراكشية أو « المغرب الاقصى » حسب تسميتها العربية القديمة أدواراً عظيمة في تاريخ الاسلام وتعاليه وحضارته وفتوحاته على مختلف الأدوار ، ومنها انجه الفاتحون الاولون الى الأندلس وأطراف أوروبا الغربية ، وإلى أواسط افريقية كما انها ظلت تمد السلطان العربي في اسبانيا بالدم الجديد آناً بعد آن حيث يعود اكبر الفضل الى الدول التي قامت فيها في القرون الوسطى في بقاء ذلك السلطان نحو ثمانية قرون .

ومنذ ثلاثة قرون قامت فيها الدولة العلوية الشريفية التي ما تزال سلالتها تتربع على عرشها . وقد تقلبت الحالة في مراكش في عهد هذه الدولة بين اليسر والعسر والقوة والضعف ، واستطاع بعض سلاطينها ان يجعلوا الدولة في بعض الظروف قوية محترمة الجانب مخطوبة الود ، وأن يقفوا من مطامع الدول منهـــا موقف الاباء والنضال المجدي .

تنافس فرنسا واسبانيا ومطامعهما

غير أنها كان يعتورها ظروف فتور وضعف وارتباك بسبب ما كان يقوم فيها من فتن قبائلية من آن لآخر وبسبب سني الجدب التي كانت تحدث المجاعات المبيدة ، فكان الطامعون يغتنمون الفرص لدسّ يد الفساد ، وكانت اسبانيا وفرنسا بنوع خاص اكثر الدول تبييتاً للطمع في هذه البلاد الغنية الواسعة واكثرهـــا ترقبا للفرص وتوثباً للقفزة وتحريكا للفتن واشدها تنافساً فيما بينها عليهـا . وقد استطاعت الأولى في بعض ظروف الضعف ان تستولي على بعض المراكز والشواطي الشمالية الواقعة على البحر الأطلانطي ، وكان هذا مما أدى الى نضال مرير ومديد بينها وبين الدولة العلوية لم يكن ينجح في اجلاء اسبانيا عن جميع ما في يدها .

ولقد مر بين احتلال فرنسا لتونس وفرضها الحماية على مراكش نحو ثلاثين عاماً ١٨٨٢ - ١٩١٢ لم تنِ فيها فرنسا عن تهيئة الاسباب وتحين الفرص لتنفيذ عزيمتها وكان التنافس والتجاذب والتشاد الاستعماري بين الدول الاوربية الكبرى على الشرق الأوسط وشمال افريقيا قد اشتد في اواخر القرن التاسع عشر فأخر فرنسا عن الوصول الى بغيتها .

المؤتمر الدولي عام ١٨٨٠

وقد تداعت هذه الدول كنتيجة من نتائج التنافس والتشاد حول مراكش الى مؤتمر انعقد في مدريد عام ١٨٨٠ لتنظيم علاقاتها بمراكش اشترك فيه احدى عشرة دولة اوروبية والولايات المتحدة الاميركية وانتهى بمعاهدة فرضت على مراكش كثيراً من الالتزامات ومن جملتها دولية طنجه ، وان كانت نصت على الاعتراف باستقلال مراكش وتمام سلطانها واحترام اراضيها ، وصيغت قضية مراكش بصيغة دولية أوهمت أنها تدرأ عنها شر مطامع فرنسا واسبانيا خاصة .

اصابع فرنسا

ولكن فرنسا لم تعبأ بذلك ونشطت الى استغلال تلك الالتزامات اكثر من غيرها حيث رأت فيهـا الثغرة النافذة ، فأخذت ترسل عمالها الاستعماريين في شكل

بعثات طبية وتبشيرية ، وتنشيء الشركات والبيوتات التجارية مما كان من تلك الالتزامات الممنوحة للدول على السواء . وقد استطاعت ان تحصل على طلب من السلطات لبعثة عسكرية لتنظيم الجيش وتدريبه فكانت هذه البعثة وسيلة الى نفوذ فرنسا العملي والرسمي ، ثم اخذت تغري بعض اصحاب الطرق الصوفية وتعمل على كسب ولائهم وتسييرهم في الخطة التي اختطتها بسبيل ما اعتزمت عليه من نية الغدر ، حيث كان للطرق الصوفية ومشايخها تغلغل شديد في السواد الاعظم .

- ٢ -

الاتفاقات السرية

ولقد حرك هذا النشاط الدول ، فأخذ كل من انكلتره وايطالية والمانية تتحفز للسير في خطط مماثلة ، وحركت اسبانيا خاصة لانها رأت فيه خطراً على ما تعده منطقة حيوية لها ، فاضطرت فرنسا الى السعي في سبيل التفاهم مع هذه الدول وتصفية الجو والطريق لنفسها ، ونتج عن هذا السعي ابرام سلسلة اتفاقات سرية بينها وبين ايطاليا سنتي ١٩٠١ و ١٩٠٢ وافقت فيها هذه على اطلاق يد فرنسا في مراكش مقابل حريتها في العمل في ليبيا ، وبينها وبين انكلتره سنة ١٩٠٤ وافقت فيها هذه على اطلاق يد فرنسا في مراكش مقابل اطلاق يدها في مصر ، وبينها وبين اسبانية سنة ١٩٠٥ تعهدت فيها هذه بعدم معارضة مشاريع فرنسا في مراكش مقابل اعتراف هذه باحتلالاتها ومركزها الخاص في المنطقة المراكشية الشمالية وتعهدها بتسوية حدود مرضية .

ضغط فرنسا على مراكش وأثره

وسارعت بعد ذلك الى خطوة ثانية فقدمت مذكرة للحكومة المراكشية تطالب فيها بزيادة عدد أعضاء البعثة العسكرية وحصر جمع الشؤون العسكرية في يد هذه البعثة ، وبالسماح بمراقبة الشؤون الادارية المحلية من قبل مراقبين افرنسيين

بحجة ان امن البلاد الداخلي والخارجي مما يهمها هماً عظيما بسبب مصالحها الاقتصادية والحدود المشتركة بينها وبين مراكش في الجنوب والشرق . غير انها اصطدمت بموقفين موقف سلطان مراكش الذى عرض المطالب على مجلس اعيان البلاد فقرر رفضها لتعارضها مع معاهدة مدريد وطلب عرضها على الهيئة الدولية ، وموقف المانيا التي تجاهلتها فرنسا حيث زار الامبراطور غليوم طنجة بمظاهرة صاخبة وصرح لممثلي الحكومة المراكشية بأنه ينظر الى السلطان على اعتبار انه الحاكم الشرعي المستقل

المؤتمر الدولي الثاني

وأدى الموقفان الى انعقاد المؤتمر الاولي في سنة ١٩٠٦ في الجزيرة كان من نتائجه تجديد الاعتراف باستقلال مراكش ووحدتها وسيادة السلطان ، وعدم الاعتراف لأي دولة بمركز خاص فيها ؛ وهكذا منيت فرنسا بالهزيمة في هذه الجولة ولكنها لم تنهزم وظلت تترقب الفرصة للتنفيذ والانقضاض . ونصحت داهية الاستعمار التي لا يهمها عهد ولا ذمة في سبيله وهي بريطانيا زميلتها بارضاء المانيا قبل أن تخطو خطوة عملية وقالت ان مؤازرتها لها والاغضاء عن قرارات مؤتمر الجزيرة منوطان بذلك .

فتنة ابي حمارة وأثرها

غير ان فرنسا لم تأخذ بهذه النصيحة واستنجت فرصة فتنة داخلية قام بها ثائر نعت بأبي حماره وكان يزعم أنه ذو حق في العرش فأمدته وساعدته حتى عمت فتنته البلاد واستمرت بضع سنين . وقد استنفدت الفتنة طائل الاموال فاضطر السلطان المولى عبد العزيز الى الاستقراض من فرنسا واسبانيا وانكلترة ، واستغلت فرنسا الموقف فأجبرت السلطان على قبول مراقبتها على الجمارك ضمانة للأموال التي استقرضها . وحينما بلغت الفتنة ذروتها ارسلت قوة احتلت مدينتى الدار البيضاء ووجدة المجاورة لحدود الجزائر بحجة منع الفتنة عن هذا القطر وحماية حدوده ، واجبرت السلطان على توقيع معاهدة اعترف بها بهذا الاحتلال وبحق فرنسا في التدخل في الرسوم الجمركية وباقرار نظام خاص للدار البيضاء ومناطق الحدود المجاورة للجزائر واسناد ادارتها لعمال افرنسيين على ان يكون كل هذا موقتاً .

موقف المانيا وارضاؤها

وأهاج هذا الشعب والمانيا معاً . اما الشعب فقد اتفق جهرة من رؤسائه مع المولى عبد الحفيظ اخي السلطان على خلع الاخير واعتلائه العرش مكانه على اساس انهاء الاحتلال والتدخل الافرنسي ، وانتهاج منهج اصلاحي شامل في الدولة ، فثار عبد الحفيظ على اخيه وتمكن من خلعه ثم أخذ فعلا في اتخاذ الاجراآت للاصلاح في مختلف المناحي من دستور وقوانين وتعليم وعمران الخ . واما المانيا فأرسلت بارجة الى ميناء اغادير كتهديد لفرنسا وطلبت من هذه ومن زميلتها اسبانيا ان تسحبا قواتهما الاحتلالية . وحينئذ رأت فرنسا انه لا مناص من ارضاء المانيا وتم ذلك بمعاهدة عقدت سنه ١٩١١ اعترفت المانيا فيها لفرنسا بحماية مراكش مقابل تنازل هذه لها عن بعض ممتلكاتها في افريقية الاستوائية .

نجاح المؤامرة ومعاهدة الحماية

وهكذا استحكمت حلقات المؤامرة الاستعمارية الاوروبية وسخرت الدول على اختلاف نزعاتها من معاني الحق والشرف كما نسيت معاهداتها وتوكيداتها واعترافها بسيادة مراكش ووحدتها حينما نال كل منها تعويضاً ، وتركت هذه وجهاً لوجه وحدها امام فرنسا ، وقد شعر الشعب بالمؤامرة فانفجرت ثورته على السلطان وضعف امر الحكومة ضعفاً شديداً فاستسنحت فرنسا الفرصة وزحفت قواها في اواخر عام ١٩١١ نحو فاس عاصمة الدولة بحجة تأمين الامن الذي هي مسئولة عنه وفاقا للاتفاقات السابقة ثم حماية السلطان من رعيته واحتلتها ، ثم قدم الوزير الافرنسي معاهدة الحماية الى السلطان واخذ يضغط عليه ترغيبا وترهيبا في ظل قوى الاحتلال التي ملأت العاصمة حتى وقعها وكان ذلك يوم ٣٠ مارس من عام ١٩١٢ .

نصوص المعاهدة ومداها

ولقد نصت المعاهدة على انشاء نظام جديد يسمح بالاصلاحات الادارية والقضائية والثقافية والمالية والعسكرية التي ترى الحكومة الافرنسية فائدة في ادخالهـــا لمراكش ، وتعهد فرنسا ببذل تأييدها الدائم للسلطان وخلفائه ضد كل خطر يهدد شخصه او عرشه او يقلق امن مملكته ، وانطواء النظام الجديد على احترام التقاليد الدينية الاسلامية واستمرار تطبيقها ، وحرمة السلطان ومكانته المعتادة ، وصيانة المنشآت الاسلاميـة والوقفية ، وتخويل فرنسا بمفاوضة اسبانيا والاتفاق معها على تنظيم مركزها في القسم الشمالي من البلاد، وموافقة السلطان على احتلال فرنسا لكل مكان ترى إلى احتلاله ضرورة لاستتباب الامن وضمانة حرية التجارة، وحق فرنسا بمزاولة كل عمل من اعمال الحراسة البرية والبحرية في المياه المراكشية ، وواجب السلطان وخلفائه بإصدار الاوامر التي يقتضيها النظام الجديـــد طبقاً لاقتراحات الحكومة الافرنسية، وتمثيل فرنسا لدى السلطان بمقيم عام مفوض ومسئول عن تنفيذ المعاهدة يكون في ذات الوقت هو الوسيط الوحيد بين السلطان وحكومته وبين الممثلين الأجانب والمكلف بجميع القضايا التي تهم الاجانب في المملكة المراكشية وصاحب الحق في المصادقة باسم الحكومة الافرنسية على كل امر يصدر من السلطان والاذن بنشره ليصبح نافـذاً ، ورعاية مصالح مراكش ورعاياها في الخارج من قبل ممثلي فرنسا السياسيين وقناصلها ، وتعهد السلطان بعدم عقد اي عقد ذي صبغة دولية دون موافقة سابقة من فرنسا ، وامتناعه عن عقد اي قرض عام او خاص او منح اي امتياز على اي شكل دون موافقة سابقة من فرنسا كذلك ، وتنظيم الشؤون المالية بضمان الخزينة وجباية مداخيل الدولة من قبل خـــبراء افرنسيين مع رعاية الحقوق المخولة لحاملي سندات الدين المراكشي العام .

والنصوص العجيبـة الفظيعة التي تمنح فرنسا بها لنفسها حق التصرف المطلق في البلاد وتجعل مقيمها العام فوق السلطان وتقيد هذا بحيث لا تجيز له اي حركة او عمل إلا بموافقة هـذا المقيم ، بل والتي تجاوزت في صراحتها وبعد مداها النصوص

المفروضة على تونس والجزائر مع اتحاد الجوهر والقصد لا تدع شكاً في انها امليت بالقوة والاكراه والخديعة ، كما ان موقف السلطان عبد الحفيظ يؤيد ذلك حيث ثارت ثائرته حينما عرضت عليه ورفض التوقيع عليها قائلاً انه يأبى ان يهين نفسه بنفسه ، وأخذ يفند النصوص ويتساءل عن الضمانات التي تقدمها فرنسا بشأن التقاليد الاسلامية . غير انه وجد نفسه امام تهديد ظن انه سيكون اوخم عاقبة على بلاده فوقع المعاهدة كارهاً تفادياً لهذه العاقبة ، ثم انسحب من العرش عقب توقيعها . وقد احتوى نص تنازله اشارة صريحة الى ظروف التوقيع ونتائجه حيث جاء فيه : لقد رأينا أنفسنا عاجزين عن القيام بواجباتنا التي يجب ان نقوم بها كملك نحو شعب مقرّرنا التنازل ...

- ٥ -

ثورة فاس ضد المعاهدة

ولقد كان وقع المعاهدة والاحتلال على الشعب شديداً صاعقاً ، اهاجت ثائرته وجرحت كبرياءه ، وكان من نتيجة ذلك ان انقض الجنود المراكشيون ليلة ١٧ – ١٨ نيسان ١٩١٢ على ضباطهم الافرنسيين وقتلوهم وكانوا ثمانيه وستين ضابطاً ثم خرجت الكتائب المراكشية فاستولت على معظم المدينة واخذ الجنود يتعقبون الافرنسيين في العاصمة (فاس) ويفتكون بهم وانضم اليهم الاهالي هائجين صاخبين ليعبروا عن شعور الألم الشديد الذي ألم بهم ، وسادت الفوضى في العاصمة في الايام التالية ، وكان دوي الرصاص يلعلع فيها ليـــلاً ونهاراً ، وازداد الحرج والفوضى عندما أخذت القبائل المجاورة تزحف على العاصمة لتشترك مع الثائرين في الفتك بالمغزاة البغاة .

وهلعت فرنسا من الاخبـــار فعجت عبدانها واختارت اصلبها واقساها وهو المارشال ليوتي الذي يعد سفاح مراكش الباغي وارسلته قائداً ومقيماً عاماً ، وجاء بموكب عظيم تعمد اظهار الابهة والارهاب ، ودخل فاس في اواسط شهر ايار ١٩١٢ دخول الغازي المطمئن ، فكان دخوله بمثابة صب الزيت على النار حيث إشتد

لهيب الثورة في كل مكان في العاصمـــة وحاصرتها القبائل الثائرة ، وكانت الفرق الافرنسية تنهزم واحـــدة بعد اخرى حتى لقد حدث المارشال نفسه بالانسحاب ، ولكن المدفعية استطاعت ان تنقذ الموقف وتفك الحصار فأدى هذا الى خمود النار في فاس .

ثورات الجنوب

غير ان روح التمرد والألم كانت قد سرت في انحاء البلاد الاخرى فثار الشيخ ماء العينين وابنه الهبه في الجنوب واكتسحه واحتل في آب ١٩١٢ مدينة مراكش وبدأ يستعد للزحف على منطقة الشاوية . ومع ان الجيش الافرنسي انتصر على جيش الشيخ وأرغمه الى الانسحاب من مراكش إلا ان حركة التمرد والمقاومة بفضل دعوة الشيخ ظلت مستمرة الى سنة ١٩٣٥ .

وكذلك ثار الزعيم موسى وحمو في منطقة تافيـلات في اقصى الجنوب في نفس الظروف وكانت ثورة عسكرية قوية واسعة كلفت الافرنسيين كثيراً من الجهد والتضحيات ، وانهزمت فيها بضع حملات ، ومع ان الافرنسيين دبروا اغتياله فإن حركته لم تخمد حيث خلفه على رأسها ابو القاسم النقادي الذي استطاع ان يستمر في تمرده ومقاومته الى سنة ١٩٣٥ أيضاً .

وفضلا عن هاتين الثورتين الكبيرتين والمديدتين فقد شبت ثورات عديدة في مناطق مختلفة من البلاد وخاصة في مناطق جبال الأطلس واستنفدت من الافرنسيين الجهد العظيم والدماء الغزيرة، وكانت كلما خمدت واحدة شبت اخرى الى سنة ١٩٣٣

تنازل السلطان عبد الحفيظ

ولقد كان السلطان عبد الحفيظ شديد الالم من الموقف . وكان الشعب يعرف انه اجبر على المعاهدة إجباراً فلم تتزلزل مكانته في نفوسهم. فرأى ليوتي ان يستغل هذه المكانة فحاول تهدئة السلطان واستدراجه باللين ، وهدده بالواسطة بفقد عرشه إذا لم يتضامن معه على تسيير الامور ، ولكنه ابى ان ينقاد اليه وأعلن عزمه على

مغادرة مراكش وانتقل الى ميناء الرباط بسبيل ذلك بعد ان اسمع ليوتي قارص النقد وحـــذره من النتائج الخطيرة التي تترتب على سياسة البغي التي انتهجها الافرنسيون ، ووقع وثيقة التنازل عن العرش وغادر البلاد في ١١ آب ١٩١٢ ، وخرج اهل المدينة زرافات زرافات ليلقوا آخر نظرة على الملك الذي آثر ان يقضي بقية عمره في المنفى على ان يحتفظ بالعرش ويساهم في ما يُبَيِّتُ لبلاده من غدر وعسف ، وخلفه اخوه المولى يوسف الذي قبل ان يمثل مع الافرنسيين الدور الذي اباه اخوه .

نكبة تقسيم مراكش رسمياً

ولقد نصت المعاهدة المفروضة على تخويل فرنسا تنظيم علاقة اسبانيا بمراكش ومركزها ، لم يكن يوماً ما شرعياً وظلت مراكش تكافحه في كل مناسبة فكانت نكبة مراكش بهذا النص مزدوجة تقسيم واستعمار . وقد جرت المفاوضات بين الدولتين الباغيتين وانتهت بعقد معاهدة في مابينهما في تاريخ ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٢ نصت على بقاء المنطقة الشمالية التي تبلغ مساحتها نيفاً وعشرين الف كيلومتر مربع تحت الاحتلال الاسباني على ان تكون داخلة في نطاق سيادة السلطان الدينية والمدنية يمثله فيها خليفة عنه ، يختاره من مرشحين تقدمها اسبانيا له ، ويكون لاسبانيا ما لفرنسا في المنطقة الجنوبية فتمثلها في الخارج وتدخل ماتراه من نظم واصلاحات ، ويكون لها مقيم عام له من الصلاحيات ما للمقيم الافرنسي العام في المنطقة الافرنسية .

ومنذئذ وفرنسا في معظم البلاد المراكشية واسبانيا في المنطقة الشمالية منها تطبقان مناهج استعمارهما المظلمـــة التي تماثل ما يطبق منها في الجزائر وتونس ، وتحكمان البلاد بالحديد والنار وتقمعان كل حركة نضالية او وطنية بكل شدة وقسوة ، وتقبضان على مصالح البلاد ومرافقها بيد استعمارية جشعة ، وتستغلان خيراتها لصالح رعاياهما وتحولان دون اي تقدم جدي علمي او اقتصادي او عمراني في البلاد وتحاربان العروبة والاسلام فيها حرباً شعواء ، وتبثان روح الوهن والفتنة والفرقة بين طبقات الاهلين تحقيقاً للهدف الباغي اللئيم وهو تبديل وجه البلاد وهدم كيانها القومي وقلبها الى مستعمرتين افرنسية في الجنوب واسبانية في الشمال لغة

ووجهاً ودينناً واستثماراً .

ولقد كانت مراكش قبل النكبة دولة مستقلة ذات سيادة تامة لهـــا قوانينها ووزراؤها وحكامها وهيئاتها الشورية وسفراؤها وقواها البرية والبحرية وحركتها العلمية والعمرانية والزراعية والاجتماعية التي اخذت بالسير في المدة الاخيرة في سبيل التحسن ، فانجه اهتمام الافرنسيين والاسبانيين الى وقف ذلك كله ، وإنشاء جهاز يقوم على موظفين منهم ويسير في تحقيق الهدف الاستعماري الباغي الذي استهدفوه بأسرع ما يمكن من الخطى .

شخصية المقيم العام المزدوجة

وكان اول ما فعله الافرنسيون ان استصدر المقيم العام مرسوماً من السلطان الذي نصبه باعتباره الواسطة الوحيدة بينه وبين الـدول الاجنبية ، والقائد الاعلى للقوى البرية والبحرية . فغدا بذلك ذا شخصية مزدوجة ، افرنسياً يمثل دولته ، ومراكشياً تتمثل فيه هذه المهام المراكشية ! ونتيجة لذلك الغيت وزاوتا الشؤون الخارجية والحربية وقصرت الحكومة المحلية ووزاراتها على الشؤون الادارية ، وانشئت في دار الاقامة العامة مكاتب سياسية ومدنية وعسكرية لمساعدة المقيم العام في مهامه المزدوجة !

تشكيلات الادارة

ثم انشأوا ثلاث هيئات لتتولى بالفعل إدارة الـدولة . وهي امانة السر العامة للحماية والادارة العامة للشؤون الشريفية ومصلحة الادارة الأهلية . وجميع رؤساء وموظفي هذه الهيئات افرنسيون وهي مرتبطة بالاقامة العامة .

والهيأة الأولى تشرف على الشؤون التشريعية بحيث لا يعد اي شيء منها نافذاً ولا يصدر اي تشريع إلا عن طريقها وبمصادقة امينها العام .

وتقوم الثانية بتنسيق الأعمال بين الاقامة العامة والسلطان وحكومته . ويلقب

رئيسها بلقب المستشار ويشهد اجتماعات مجلس الوزراء ، ويتفرع عنها خمسة اقسام للشؤون المالية والاقتصادية والصحية والتعليمية والاشغال العامة ، وهي التي تهيء كل ما يقتضي تنفيذه من اعمال ومشاريع متصلة بهذه الشؤون وترسلها الى مجلس الوزارة لاقرارها وتقوم بعد ذلك بمراقبة التنفيذ. ثم هي التي تختار موظفي الحكومة او تبدي رأيها فيهم الذي يكون هو الأصل والنافذ دائماً .

وتضطلع الثالثة بالشؤون المدنية العامة من صحافة وطباعة وجمعيات واندية وعمال واجتماعات وبلديات واتصالات شعبية . وهي كذلك تهيء كل ما ترى تنفيذه من اعمال ومشاريع متصلة بهذه الشؤون وترسلها إلى مجلس الوزراء لاقرارها وتقوم بعد ذلك بمراقبة التنفيذ .

اصابع وخطط التغلغل والسياسة البربرية

ولهذه الهيأة شبكه منتشرة في جميع انحاء البلاد وقد استطاعت ان تستصفي لها أولياء في مختلف الاوساط وخاصة من بين رجال الطرق الصوفية الذين كان الافرنسيون يستخدمونهم في مآربهم قبل النكبة وظلوا على صلة بهم ، وبواسطة هذه الشبكة والاولياء والمأجورين يتغلغل الافرنسيون بطريق هذه الهيأة في داخلية البلاد وخصائص امور اهلها وتوطيد اقدامهم في الاماكن النائية ، وخاصة في القبائل البربرية .

وقد كان من اول ما أوحت به هذه الهيأة استصدار ظهير (مرسوم) من الملك في سنة ١٩١٤ سجل فيه اعترافه بجنس بربري يفترق عن الجنس العربي وبعادات وتقاليد بربرية تفترق عن العادات والتقاليد العربية والاسلامية وبضرورة تنظيم شؤون البربر وفقاً لعاداتهم وتقاليدهم الخاصة تدريجياً وحسب مقتضى الظروف

وكان هذا الظهير تدشينا رسميا للخطة الخبيثة التي بيتتها السلطات الافرنسية للتفريق بين الشعب المراكشي وإثارة نعراته ، وسلخ القبائل البربرية عن الاسلام والعروبة التي اندمجت فيها منذ الأحقاب الطويلة ، وتهيئة الجو للتبشير بالنصرانية بينها مرفقا بدعاية أصل البربر الاوروبي وديانتهم المسيحية وكون العروبة والاسلام

أجنبيين عنهم وليسا الا وسيلة تحكم واستعمار فيهم جاءت فرنسا لتخليصهم منها ! وهي نفس الخطة التي سارت عليها السلطات الافرنسية في الجزائر على ما ذكرناه في مناسبة سابقة .

وقد استصدرت هذه الهيئة في سنة ١٩١٥ ظهيراً جديداً بسبيل تنفيذ تلك الخطة يقضي بتأليف هيئات قبائلية باسم الجماعات كما فعلت السلطات في الجزائر من قبل للنظر في شؤون القبائل وفق تلك العادات والتقاليد ، وجعل لكل جماعة سكرتير إفرنسي ليكون الموجه النافذ في مختلف شؤون القبيلة وفقا للمنهج الذي ترسمه له .

المراقبون الافرنسيون في جانب الحكام

ولقد كانت مناطق البوادي تدار برآسة عامل مراكشي يلقب بالقائد ومناطق المدن تدار برآسة عامل مراكشي يلقب بالباشا . فأقام الافرنسيون إلى جانب كل من القواد والباشاوات مراقبا إفرنسيا صار هو الحاكم المطلق في المنطقة ، بحيث أنيط به مراقبة جميع الشؤون وحظر على الباشاوات والقواد اتخاذ أي قرار او القيام بأي عمل بدون موافقته .

الادارة المباشرة في المناطق المهمة

ومع ذلك فقد نزعوا ثماني مناطق من يد العمال المراكشيين واناطوها بحكام افرنسيين . وهذه المناطق الثمان هي اهم ولايات مراكش وعمالاتها من حيث السكان والثروة والنشاط ، فجعلت الادارة والسيطرة فيها بيد الافرنسيين مباشرة. ولقد جعل اربع منها عسكرية واربع منها مدنية ، وأنيطت العسكرية بحكام عسكريين يقوم الى جانبهم نواب مدنيون ويساعدهم هيئات اركان حربية ومكاتب إستعلامات يقوم عليها ضباط ؛ وجميعهم أفرنسيون ؛ وأنيطت المناطق المدنية بحكام مدنيين يقوم الى جانبهم نواب عسكريون ويساعدهم هيئات ومكاتب استعلامات ، وجميع الذين يتولون هذه الامور افرنسيون كذلك . وقد قسمت

كل هذه المناطق الى أقاليم والاقاليم الى دوائر ، وأنيطت الفروع وفروع الفروع بحكام ومساعدين وهيئات ومكاتب استعلامات ايضا ، وجميع الذين يتولونها إفرنسيون أيضا ..

وقد كان حكام المناطق العسكرية والمدنية وكذلك المراقبون الافرنسيون الذين اقيموا الى جانب القواد والباشاوات في مناطق المدن والبادية الأخرى يمثلون المقيم العام ؛ وبصفتهم هذه كانوا يشرفون على قوى الأمن والشرطة والجالة المراكشية مباشرة ...

الموظفون الافرنسيون

وفضلاً عن كل هذا فقد سار الافرنسيون على خطة استبدال الموظفين المراكشيين بالموظفين الافرنسيين وخاصة أصحاب الوظائف المهمة فغدت مراكش كشقيقتيها مستعمرة موظفين حيث بلغ عددهم (٢٢٠٠٠) من مجموع (٣٧٠٠٠)؛ وقد اختص الموظفون الافرنسيون بالمرتبات العالية والعلاوات المتنوعة باسم الاغتراب والاسرة والمسكن وغدت اللغة الافرنسية بطبيعة الحال السائدة في الدواوين والاعمال ، فكان في ذلك مضافا إليه طبيعة الصلف والغطرسة وحب استثمار الوظيفة المتمكنة في الموظف الافرنسي كابوس شديد على صدور الأهلين يعطل مصالحهم ويثير آلامهم وحسراتهم .

دور ضباط الاستخبارات

وقد كان ضباط الاستعلامات الذين انتشروا في كل ناحية من انحاء البلاد وتشكيلاتها والذين زاد عددهم عن الثلثمئة كابوسا شديداً اخر لما كانوا يحيطون به الناس من الرقابة ويبثونه فيهم من الدسائس وينصبونه لهم من المكائد ويثيرونه من النعرات ويستصفونه من الانصار والمأجورين بسبيل الفتنة والتفرقة والدس ، وغدوا عماد السلطات الافرنسية في السياسة المحلية واصحاب الكلمة المسموعة في المناطق والاقاليم والدوائر .

ولقد انشيء في البلاد خمس عشرة بلدية جميع رؤسائها افرنسيون ، حتى بلديات المدن التي ليس فيها افرنسيون . وكل ما جعل للمراكشيين فيها هو مساعدون الى جانب الرؤساء الافرنسيين هم الى الآلة والصورة اقرب منهم الى الحقيقة والأثر .

غرف الزراعة والصناعة والتجارة الافرنسية

وقد انشيء منذ عهد مبكر في كل منطقة غرفٌ للزراعة واخرى للصناعة والتجارة ، حصرت عضويتها في الافرنسيين ، وكان اعضاؤها يعينون تعيينا ثم صاروا ينتخبون انتخابا من قبل الزراع والصناع والتجار الافرنسيين .

وتقدم هذه الغرف التقارير واللوائح للسلطات في مختلف الشؤون الصناعية والزراعية والتجارية وخاصة من نواحي الاساليب الاستثمارية والاستعمارية ، مما ينطوي فيه مفهوم ان مراكش لم تعد ان تكون مستعمرة إفرنسية كل ما تفكر فيه السلطات الافرنسية والمنظمات الافرنسية هو افضل الاساليب والوسائل لاستعمارها واستثمار خيراتها وثرواتها لصالح الافرنسيين .

مجلس شورى الحكومة الافرنسي ومدى تعبيره

ثم أنشيء بعد قليل من انشاء هذه الغرف مجلس سمي بمجلس شورى الحكومة كانت مهمته في البدء تنسيق اعمال ونشاط تلك الغرف ؛ وكان يتألف تبعا لطبيعة بنيان هذه الغرف من أعضاء افرنسيين كانوا يعينون تعيينا ثم غدوا ينتخبون إنتخابا من قبل الجاليات الافرنسية بعد ان كثر عددها واتسع نشاطها واستد كيانها وساعدها .

وهكذا كان هذا المجلس حين نشأ معبراً آخر عن ذلك المفهوم وبأسلوب أشد نكاية واستهتاراً ، حيث انطوى فيه معنى ان الحكم والحكومة والمصالح الزراعية والصناعية والتجارية وبكلمة واحدة كيان البلاد الدولي والاقتصادي إنما هو كيان إفرنسي وحسب . ومع ان هذا المجلس قد تطور أخيراً بعض الشيء وأدخل فيه عنصر مراكشي عن طريق تمثيل الغرف التجارية والزراعية والصناعية المراكشية

فقد ظل ينطوي على ذلك المفهوم والاسلوب . وقد صار يتألف من رجال الادارة الافرنسيين وممثلين افرنسيين تنتخبهم الجاليات الافرنسية غير الزراعية والتجارية والصناعية ، وممثلين للغرف التجارية والزراعية والصناعية الافرنسية والمراكشية . وصار هذا المجلس بمثابة مجلس نيابي ذي صفة استشارية ، مع التنبيه على ان العنصر المراكشي فيه محدود وأن اكثريته العظمى افرنسية . ومن الطريف المعبر عن ذلك المفهوم والاسلوب ان المقيم الافرنسي العام هو الذي يرأس هذا المجلس الذي احتفظ بذلك الاسم ويتلو عليه بياناً بما قام به من اعمال في الدولة ، ويحضره رؤساء المصالح الافرنسيون ليدلوا ببيانات عن اعمالهم ويجيبوا على ما يوجه اليهم من اسئلة وانتقادات في صدد هذه المصالح . وفي هذا المجلس تناقش ميزانية الدولة وتوضع في القالب المناسب لترفع الى الملك للتصديق ، وتحمل بطبيعة الحال جميع نفقات الاقامة العامة والادارات والتشكيلات الافرنسية المتنوعة .

- ٨ -

ودارت هذه الآلة الاستعمارية المستحكمة الحلقات والشاملة النطاق في طريق هدفها كما دارت مثيلتها في تونس والجزائر من قبل .

المهاجرون

ففتحت ابواب البلاد للمهاجرين الافرنسيين وأخذت تسهل لهم اسباب التوطن والاستقرار والاثراء ، حتى بلغ عددهم نحو ثلثمئة الف افرنسي بالاضافة الى خمسين الف اوروبي آخر .

الاراضي والمزارعون

وأقطع المستعمرون الزراعيون بالاساليب المتنوعة التي جرى عليها في تونس والجزائر مساحات واسعة من اجود الاراضي انتزعت من ايدي اصحابها حتى بلغت نحو مليون هكتار أي عشرة ملايين دونم . وهذه المساحة تعدل نحو ربع

الاراضي الزراعية الصالحة . ويبدو هول النسبة إذا ما لوحظ أن عدد المراكشيين في المنطقة الافرنسية يقرب من تسعة ملايين . كذلك فقد منحوا متنوع المساعدات المالية من خزينة الدولة وخصصوا بامتيازات مكنتهم من التوطن والاثراء . ومن جملة ذلك خفض الضرائب عنهم الى النصف بالنسبة للمراكشيين ، وتشريع العمل الاجباري في المشاريع العامة بالمجان والاجرة الزهيدة واعتبار شق الترع وحفر الابار وتعبيد الطرق وانشاء المخافر في الاراضي الممنوحة للمستعمرين مما يدخل في نطاق هذا التشريع . ولقد بلغ من امر هؤلاء المستعمرين أن تسلطوا في ظل هذه الآلة على الفلاحين والاهالي المجاورين لهم وتحكموا فيهم تحكم السادة بالعبيد وتيسرت لهم فيهم اليد الكادحة الرخيصة وأثروا ثراء عظيما واصبحوا ذوي قوة ونفوذ يحسب حسابها في الدوائر الافرنسية في مراكش وفي باريس معاً .

السياسة الاقتصادية

وقد عدلت أنظمة الجمارك ومنح بها الافرنسيون فوائد عظيمة من جملتها اعفاء كثير من السلع والمصنوعات الافرنسية من الرسوم او خفضها ، فحميت من المزاحمة ويسر لها احتكار السوق المراكشية والتحكم فيها .

ولقد كادت الشركات الصناعية والتجارية والزراعية تنحصر في ايدي الافرنسيين حيث قامت شركات افرنسية مدعومة بأموال ضخمة تحكمت في المرافق والاعمال الاقتصادية المتنوعة ، ونالت الامتيازات الاحتكارية العديدة والمعادن والمناجم في مقدمتها وهي كثيرة وغنية جداً . ولقد وصل الامر الى وضع العقبات والمشاكل في وجه كل فلاح مراكشي أراد شراء آلة زراعية حديثة ، وفي وجه كل صانع مراكشي اراد ان يدخل على مهنته شيئاً من التجديد ، وفي وجه كل تاجر مراكشي اراد ان تكون له صلات تجارية خارجية تصديرية او استيرادية فضلا عن العقبات والمشاكل التي تقف في وجه كل محاولة مراكشية ترمي الى تأليف شركات اهلية . ومن عجيب ما يقع ان الادارة الافرنسية تستولي على ما تقدره زائداً على الاستهلاك المحلي من غلات محلية زراعية وحيوانية بالثمن الذي تقدره والذي لا يكاد احيانا يسدد نفقاته وتتولى هي تصديره الى الخارج .

وقد ادت هذه السياسة الى إفقار الشعب وانحطاط مستوى معيشته وانتشار البطالة والمجاعات وقتل الصناعات المحلية وشل كل نشاط إقتصادي مراكشي . ويكاد معدل اجر العامل المراكشي اجمالا لا يرتفع اليوم عن ٣٥ فرنكاً اي (٣٥) قرشا سوريا او اقل . ولقد كانت المجاعات تفتك احيانا كالوباء الجارف نتيجة للفقر وسوء الغذاء حتى إنها ذهبت سنة ١٩٤٥ بنحو مليون نسمة ، مع ان البلاد زراعية ومحاطة ببلاد زراعية ، مما لا يمكن ان يكون اي احتمال لفتك المجاعة هذا الفتك الذريع لو كانت حالة البلاد المالية مساعدة ولو اجدبت في بعض السنين .

- ٩ -

الميزانية

ونظرة واحدة الى ميزانية الدولة التي يفرضها الافرنسيون تكفي لمعرفة بشاعة استثمار واستئثار وتحكم هذه الآلة الاستعمارية واستهتارها واهمالها لمرافق البلاد واهلها . فقد كانت نفقات عام (١٩٤٧) نحو ثمانية مليارات ونصف من الفرنكات ينفق نحو ٨٠ في المئة منها على الدوائر الافرنسية لحماً ودماً وعظما ، وعلى التشكيلات الافرنسية وعلى الموظفين الافرنسيين . وباقيها على الديون والشؤون المراكشية .

التعليم

وفي الميزانية رقم ضخم مخصص للتعليم وهو مليار فرنك . غير ان التدقيق في ما يجري عليه التعليم في مراكش يظهر ان اكثر هذا المبلغ ينفق كذلك على الافرنسيين . فإن عدد الطلاب المراكشيين الذين يتلقون العلم في المدارس الحكومية الخاصة بهم كان سنة ١٩٤٧ (٤٥٠٠٠) منهم الف يتلقون التعليم الثانوي الذي ليس بعده اي تعليم ارقى ؛ في حين ان عدد الذين يتلقون التعليم من ابناء الافرنسيين والاوروبيين في المدارس الحكومية الخاصة بهم كان نحو (٧٦٠٠٠) منهم (١٣٠٠٠) في الاقسام الثانوية . وإذا لاحظنا الفروق الكبيرة التي لابد من وجودها في معدات

ومرتبات اساتذة المدارس الافرنسية ظهر لنا ان نحو ربع ذلك المبلغ الضخم فقط ينفق على المدارس المراكشية ! وإذا ما لوحظ ان عدد الذين هم في سن التعليم من المراكشيين يبلغ نحو مليون وربع ، وان عـــدد الذين هم في سن التعليم من الافرنسيين والاوروبيين لا يزيدون كثيراً عن الخمسة والسبعين الفاً بمعدل ٢٠ ٪ من مجموع العدد ظهر هول ذلك الاهمال والاستئثار ، لانه لا يوجد طفل اوروبي بدون مدرسة بينما ان ٩٦ ٪ من اطفال المراكشيين لا يوجد لهم مكان في المدارس الحكومية !!.. ومن المضحك المبكي الذي يظهر قيمة التعليم في المدارس الحكومية الخاصة بالمراكشيين كيفية بالاضافة الى تلك الضآلة في الكمية ان عدد الذين نالوا الشهادة الابتدائية منهم في سنة ١٩٤٧ كان ٨٨٢ صبياً و٨٢ بنتاً .. والى هذا فان اللغة العربية والدين الاسلامي يحاربان في هذه المدارس حرباً شديدة ويضيق مكانهما اشد التضييق . وهدف هـــذا التعليم هو اضعاف الروح القومية والوطنية والدينية وتخريج موظفين ثانويين متشبعين بالولاء أو العبودية لفرنسا . وللمرشال ليوتي كلمة تشير الى هذا الهدف دون ما خجل حيث قال فيما قال : انه ليس لنا اي فائدة من تدريس اللغة العربيـة ويجب ان تهدف سياستنا الى ابعاد القبائل عن تعليم ابنائها هذه اللغة التي لن نجني من ورائها خيراً .

محاربة اللغة العربية والاسلام

وله كلمة اخرى تكشف عن الروح اللئيمة التي كان يحملها – وهو ممثل السياسة الافرنسية – ضد هذه اللغة والدين الاسلامي معاً حيث قال ان اللغة العربية تنشر الاسلام لاتصالها بالقرآن، وان مصلحتنا لتقضي علينا بابقاء القبائل خارجة عن نطاقها مما هو تتمة للخطة التي ذكرناها من قبل . ولقد كان مما فعله ليوتي منذ عهد مبكر بسبيل ذلك انشاء لجنة خاصة لاحياء اللهجات البربرية في القبائل ومحاربة اللغة العربية فيها . .

والارقام التي ذكرناها عن نسبة الطلاب المراكشيين هي احسن مما كانت عليه من قبل على مايبدو . فقد ذكرت نشرة اصدرتها ادارة التعليم في تشرين الثاني من

عام ١٩٣٩ ان عـــدد الطلاب المراكشيين في المدارس الحكومية الخاصة بهم هو (١٩٣٨١) بينما كان عدد الطلاب الاوروبيين (٥٧٥٥٩) .

ولقد حاول المراكشيون ان يسدوا ثغرة التعليم الواسعة من حيث الكيفية والكمية ويتلافوا اثر التقصير الباغي والروح الشيمة ضد الثقافة العربية والاسلامية واستطاعوا بجهود عظيمة وبنفقات باهظة يكادون ينوؤن بها ان ينشئوا عدداً غير يسير من المدارس الحرة ووفق النظام المدرسي القديم . على ان الآلة الاستعمارية تضع شتى العراقيل في وجه نمو هذه المدارس وتحسينها. بل انها اصدرت عام ١٩٢٧ ظهيراً للحد من اتساعها وتعطيل تمويلها بالاكتتابات الشعبية . وهي تترصد للموجود منها لتسارع الى إقفاله بسبب اي موقف تفسره وفق هواها . وقـــد حالت سنة ١٩٤٨ دون انشاء هذه المدارس ، واقفلت واحدة لان مديرها لم يذهب بتلاميذه لتحية المقيم العام الذي زار وزان سنة ١٩٤٨ ، ومنع المقيم العام في السنة نفسها السلطان من شهود حفلة تدشين مدرسة في الرباط انشئت بالاكتتابات العامة ومن وضع الحجر الأساسي لمدرسة اخرى مثلها في مدينة مراكش .

ونتيجة لهذا كله فإن الشعب المراكشي مرتكس في الجهل ، ونسبة الاميه فيه تزيد على التسعين في المئة ...

كذلك توضع العراقيل والسدود في وجه الشبان الذين يتوقون الى ارتيـــاد مناهل العلم في اوروبا ، وقد كان نتيجة ذلك انه لايوجد في جميع مراكش إلا ثلاثة اطباء وستة محامين وستة مهندسين مراكشيين استطاعوا أن يتغلبوا على هـــذه العراقيل او يتفلتوا منها !

ومثل هذه العراقيل واشد توضع في طريق من يود ان يولي وجهه شطر المشرق العربي وارتياد معاهده ، وقد عرفنا ذلك بأنفسنا . فقد استطاع بضعة نفر من ابناء مراكش ان يفلت فجاء ودخل مدرسة النجاح في نابلس وعد ذلك فتحاً عظيما ، واضطر هذا النفر ان يبقى نحو ست سنين دون ان يعود الى بلاده في عطلة خشية من عدم تمكنه من العودة الى المعهد الذي رأى في الانتساب اليه هذا الفتح مع انه معهد ابتدائي وثانوي . وقد كان من شأن هذا النفر أن برز في مجال الحركة الوطنية حينما تم تعليمه وما يزال يشغل الصفوف الأمامية فيها . وقد علمنا ان السلطات قد تجهمت لتسرب هـــذا النفر الى المشرق العربي فأخذت تشدد المنع حتى لا تسري عدواه . . .

اهمال المرافق الصحية

وروح الاهمال والاستئثار بادية في الشؤون الصحية ، فتهاون في المئة بما يخصص لهذه الشؤون في الميزانية ينفق على شؤون الجالية الافرنسية والاوروبية من مستشفيات ومستوصفات ومكافحات الخ . وقد نشب مرض التيفوس في اواخر الحرب العالمية الأخيرة ففتك في المراكشيين فتكاً ذريعاً حتى لقد كانت اموانهم تبلغ المئات يومياً في بعض المدن دون ان تقوم السلطات الصحية بمجهود جدي في كفاح الوباء .

- ١٠ -

مراكش تحت الحكم العسكري

ولقد اعلنت السلطات حالة الطوارىء والحكم العسكري منذ تم الاحتلال ، ولم تلغ الى الآن ! أي ان مراكش منذ ثمان وثلاثين سنة تحت كابوس الحكم العسكري وحالة الطوارىء . وكان نتيجة هذا ومن نتائج المنهج الاستعماري الذي سارت عليه هذه السلطات ان حرم المراكشيون من مختلف حرياتهم . فلم يسمح لهم خلال هذه المدة الطويلة بتأسيس اي ناد او جمعية او حزب حتى ولا بانشاء فرق رياضيه وكشفية مع وجود نصوص قانونية تسمح بذلك ، لأن هذا قيد بموافقة السلطات وإذنها ، ولم تر هذه السلطات ان توافق على شيء من ذلك . والقليل الموجود غير قانوني قام بقوة الظروف وبدون إذن السلطات واعترافها وقد كان قبل النكبة منظمات عديدة ظلت السلطات تحاربها حتى قضت على اكثرها ، ولم يتسع صدرها إلا لطوائف المشعوذين والدجالين ممن ينتسبون الى الطرق الصوفية التي كانت مطية من مطاياها . هذا في حين انها تحمي باعة الخمور والحشيش والمتجرين بالاعراض من الأجانب ، وفي حين تسمح للجالية الافرنسية بتأسيس احزاب مستقلة او تابعة لاحزاب فرنسا ، وتسمح لها بتأسيس متنوع الاندية والمنظمات .

ولقد سمح الافرنسيون بقيام جمعيات خيرية محلية في بعض المدن لمساعدة الفقراء والمرضى ، غير انهم جعلوها تحت اشراف مراقبين افرنسيين وتوجيههم ، ومؤلفة من

الفئات المتزلفة التي ليس لهـــا من همّ العمل إلا الانتساب اليه والتقرب للمراقب الافرنسي والتأمين على كل ما يقوله ويقترحه ، بحيث فقدت هذه الجمعيات كل مظهر مجد من مظاهر النشاط والانتاج .

كذلك كان امرهم إزاء الصحافة . والصحف العربية القليلة التي تصدر في مراكش هي التي يصدرها اناس مأجورون يكتبون ما يوحي اليهم او تصدرها إدارة الشؤون السياسية مباشرة على الاغلب . وما يصدره غير هؤلاء يستهدف لمراقبة شديدة قبل الطبع تجعلها فاقدة الروح . وقد سد باب المغرب امام اي صحيفة او نشرة خارجية غير افرنسية وخاصة عربية ، حتى لقد بلغ عدد الممنوعات عام ١٩٤٨ الفاً ومئتين .

- ١١ -

نضال مراكش

ولم يستسلم المراكشيون ايضاً كإخوانهم من قبل لما اريد لهم من تبدل الوجه والروح واللسان والكيان . ولقد بدأ كفاحهم منذ الاحتلال واستمر الى اليوم . وقد ذكرنا قبل قليل ما كان من الثورات الكبرى في فاس ومناطق الجنوب وجبال الاطلس على اثر النكبة كما ذكرنا موقف السلطان عبد الحفيظ وتنازله الاحتجاجي . ولقد ظلت الاحتجاجات والاضرابات والثورات الدامية تتكرر وتكون شديدة عنيفة احياناً . ومع ما كان الافرنسيون يقابلون هذه الحركات به من القمع والتنكيل ويصيبون بعض النجاح في خطواتهم الارهابية والاستعمارية فإنهم لم يستطيعوا ان يخضعوا أهل البلاد ويقضوا على مقاومتهم ، بل لقد كان هذا النجاح الذي يصيبونه عاملاً من عوامل اشتداد الكره والمقاومة والتذمر والتصميم على النضال الى النهاية .

•

الظهير البربري وأثره

وفي سنة ١٩٣٠ استصدرت السلطات الظهير الشهير بالظهير البربري الذي يقضي بنزع اختصاص القضاء الشرعي الاسلامي بالنظر في شؤون القبائل البربرية كما كان

جاريا الى هذه السنة وتسوية هذه الشؤون وفق العادات والتقاليد البربرية القديمة إحكاماً للخطة التي تبنتها وبدأتها عام ١٩١٤ على ما ذكرناه قبل ، واشتدت مع هذا حركة التبشير بين القبائل فأثار ذلك هياجاً عظيما وصلت اخباره الى المشرق العربي فأثارته بدوره وحملت هيئاته الوطنية على الاحتجاج والاستنكار لما انطوى فيه من شديد الكيد وسوء القصد للاسلام والمسلمين والكيان المراكشي . فقام في مختلف انحاء مراكش مظاهرات صاخبة ووقع اشتباكات دامية ، والتجأ الناس الى المساجد يجأرون الى الله بالنقمة على الظالمين واشتدت السلطات في القمع والمطاردة حتى امتلأت سجونها ، واخذ الناس يؤلفون الوفود من مختلف انحاء البلاد بما فيها القبائل البربرية ويوفدونها الى الملك للاحتجاج فكانت السلطات تترصدهم وتحول دون وصولهم الى العاصمة او مقابلة الملك وترسل بعضهم الى السجون . وقد تمكن بعضهم مع ذلك من اختراق الارصاد ومقابلة الملك وتقديم العرائض اليه بالمطالبة بتوطيد سلطات الملك وحكومته وخضوع الحواضر والبوادي للشريعة الاسلامية والمحاكم الشرعية وتعميم تعليم اللغة العربية والقرآن والديانة الاسلامية واستعمال اللغة العربية في الدواوين وايقاف حركة المبشرين ومنعهم من نشر ما يمس بكرامة الاسلام وبنيه ومن التجول في البوادي وشهود المواسم والاسواق ومنع الاعانات الحكومية عنهم واخراج الرهبان والمبشرين من وظائف التدريس والحكومة الخ الخ ؛ وخطبت الوفود أمامه خطباً قوية لم يسع الملك الا ان يذرف دموع الحسرات أمامها ، ولم تجد محاولاته في اقناع السلطات الافرنسية بالتخفيف من غلوائها شيئاً ...

كتلة العمل الوطني

وقد كانت هذه الحركة موقظة للأفكار ، فلم يلبث فريق من الشباب ان نشط الى التكتل والعمل وفق الاسلوب الحديث ونتج عن هذا تأليف هيأة وطنية باسم « كتلة العمل الوطني » ؛ فكان هذا تدشيناً لعهد الحركة الوطنية الحديثة في مراكش . وقد اخذت هذه الكتلة تنشط في التنظيم والدعاية نشاطاً كبيراً فلم تلبث السلطات ان حلتها .

الحزب الوطني

غير ان رجالها لم ينوا عن نشاطهم واغتنموا إحدى الفرص المواتية فعادوا الى تكتلهم باسم « الحزب الوطني » بزعامة علال الفاسي الذي مزج دعوته الوطنية بالدعوة الدينية فاستطاع ان يشغل بحركته حيزاً كبيراً ويترك في بني وطنه أثراً قويا ويثير فيهم الشعور القومي والديني معاً ، ويزيد فيهم الكره والحقد على المستعمرين واهدافهم الباغية ، والتصميم على النضال والتحرر منهم . وقد نشأ إلى هذا حزب آخر هو « حزب الحركة القومية » بزعامة الوزاني سار هو الآخر في بادىء الامر في نفس الطريق التي سار فيها الحزب الوطني ، وكان له نصيب في ما انتشر واتسع من الشعور الوطني في طبقات الشعب .

اعتقال زعماء الحركة وتعذيبهم

فعادت السلطات الى شدتها ، فاعتقلت الزعيمين عام ١٩٣٧ ونفت الفاسي الى افريقيا الاستوائية والوزاني الى منطقة مراكشية نائية حيث دام اعتقالهما نحو عشر سنين ، كما اعتقلت عشرات آخرين من رفاقهم وزجتهم في السجون وسامتهم العذاب الشديد الذي أزهق ارواح بعضهم . فكان هذا مؤديا الى خمود الحركة بعض الشيء ، ثم نشبت الحرب العالمية الثانية بعد قليل فاستطاعت فرنسا ان تسيطر على الموقف بيد حديدية أشد .

مراكش في اثناء الحرب

ولقد كانت مراكش كما كانت تونس والجزائر منبعاً غزيراً للقوى الافرنسية في هذه الحرب كما كانت كذلك في الحرب الاولى حيث جند منها عشرات الالوف وارسلوا إلى مختلف الجهات ، وذهب منهم الوف الضحايا . ولقد أغدقت على مراكش الوعود الواسعة بالاصلاح والحريّات كما اغدقت على شقيقتيها . وكانت مراكش وسواحلها الغربية خاصة نقطة حساسة جداً في العمليات الحربية . وقد

ظلت السلطات الافرنسية في مراكش موالية لفيشي عندما انهارت فرنسا فافتحم الحلفاء شواطيء مراكش الغربية في اواخر عام ١٩٤٢ ، وحاول القائد العام ان يقاوم فتدخل الملك الذي كان يشترك مع شعبه في كره الافرنسيين ونضاله وعواطفه الوطنية املاً بأن تكون فرصة هذا الانهيار سعيدة على مراكش .

وفي سنة ١٩٤٣ قدم روزفلت الى مدينة الدار البيضاء وكان شديد العناية بالاطلاع على احوال البلاد ولمس ما تعانيه من المنهج الاستعماري الافرنسي فارسل كلمته المشهورة الصادقة كل الصدق .. ان الاستعمار الافرنسي اسوأ ما يمكن ان ينكب به شعب من الشعوب .. واجتمع به الملك وشرح له الحالة السيئة التي ترتكس فيها البلاد فطمأنه بمستقبل سعيد بعد نهاية الحرب تحقيقا لمبادىء ميثاق الاطلانطي التي يهتف بها ، ولقد ابرم رجال ديغول روزفلت بما اطنبوا به من عظمة الامبراطورية الافرنسية في المغرب العربي وما يمكنهم ان يهيئوه منها من الجيوش ويمدوه من وسائل التموين والقواعد الحربية اذا ما توفرت لهم المعدات الاميركية حتى ضاق بهم ذرعا وقال لابنه ان هؤلاء الافرنسيين لا يفكرون حتى في ايام محنتهم في مصلحة الاهالي الذين شردوهم وابتزوا ارزاقهم دون ان يقدموا لهم مقابل ذلك شيئا !

استئناف النشاط الوطني وحزب الاستقلال

وفي اوائل سنة ١٩٤٤ استأنف الوطنيون المراكشيون نشاطهم بسبيل إستغلال ظروف ما بعد الحرب وهتافات الحلفاء بمبادىء الحق والعدل فالفوا حزبا جديداً بزعامة أحمد بلافريج ضم جميع العناصر الوطنية باسم حزب الاستقلال . وقد دشن الحزب نشاطه بمذكرة مسهبة شرح فيها تاريخ مراكش الاستقلالي قبل النكبة ومأساتها الاستعمارية بعدها ، وطالب باستقلال مراكش ووحدة اراضيها والالتماس من الملك السعي لدى الدول التي يهمها الأمر الاعتراف بهذا الاستقلال وضمانه ، والانضمام الى الدول الموقعة على ميثاق الاطلانتي ، وإقامة نظام سياسي شوري أسوة بنظام الحكم في البلاد العربية ؛ وقدمت المذكرة الى الملك والى ممثلي اللجنة الديغولية والولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا .

ثم اخذت الوفود الممثلة لجميع طبقات الشعب تفد الى القصر الملكي من جميع انحاء المملكة ،وؤيدة لهذه المذكرة التي عرفت في تاريخ الحركة الوطنية بوثيقة الاستقلال ، واجتمعت الوزارة المراكشية تحت رآسة الملك وقررت تأييدها . وهكذا تطورت الحركة واتخذت صفة شعبية واستقلالية عربية .

القمع والتنكيل والانفجار

وكان لهذا العمل اثر شديد لدى السلطات الافرنسية ؛ ومع انها لم تكد تنسى حقها وجنونها في لبنان فانها اقدمت على حركة جنونية وباغية اخرى حيث اعتقلت بلافريج ونفته الى كورسيكا ثم القت القبض عـــلى عدد كبير من رجال الحزب وشبابه بتهمة الفاشية ؛ فانفجرت البلاد بالمظاهرات والاشتباكات الصاخبة وخاصة في مدن فاس والرباط وسلا والدار البيضاء ووجده ، حتى لقد كان مـن أمر فاس أن صمدت شهرين طويلين في وجه القوى والحملات الافرنسية مما حمل السلطات على قطع تيار الكهرباء ومواود الماء والتموين عنها لحملها عـلى الاستسلام والخضوع ؛ ولقد اشتدت هذه السلطات في القمع والتنكيل دون مارحمة او هوادة واستعملت المصفحات والمدفعية فازهقت ارواح الكثيرين واعتقلت المئات مـــن الوطنيين وعذبتهم اشد العذاب في المعتقلات العسكرية حيث جلدوا وسيقوا حفاة عراة في مناطق الثلج والصقيع . ولم يكن لمراكش الحظ الحسن الذي كان للبنان والذي حرك الانكليز ثم الاميركان واثار العالم العربي ، ولا سيما ان بغي فرنسا كان مثيراً باعتقال رئيس الجمهورية والوزراء وحل مجلس النواب في بلد اعترف باستقلاله ، فلم تتحرك قلوب الحلفاء ولم تنبض عروقهم لهذه المأساة الدامية التي مثلت على مسرح مراكش بين سمعهم وبصرهم !

جمعية الدفاع في القاهرة

ولقد استطاع بعد قليل بعض رجال مراكش أن يفلت مـــن مراكش الى

القاهرة حيث الفوا جمعية الدفاع عـــن مراكش ، واخـذوا يرفعون اصوات الاستنكار لما يحـــز في بلادهم المنكودة وامتهم المظلومة ورجالهم الذين يسامون العذاب الاليم ، فكانت جمعيتهم هـذه النواة للحركة المغربية العربية الشاملة التي ترعرعت في القاهرة في السنين الاخيرة ، والتي غدت جزءاً لا يتجزأ من الحركة الوطنية المغربية في داخل البلاد وخارجها .

ولقد افرج عن علال الفاسي والحسن الوزاني في سنة ١٩٤٦ فعـاد الاثنان الى مراكش .

اقسام الحركة بالحركة العربية

واستأنفا ما انقطع من نشاطها ، وانضم الفاسي الى حزب الاستقلال الذي كان يضم اكثر العاملين في الحقل الوطني ويردد صدى نشاطه جمهرة الشعب المراكشي وبعضده الملك فيه ، وغدت العلامة المميزة له المناداة بالفكرة العربية والاندماج في الحركة العربيه الشامـلة والتضامن في ذلك مـــع الأقطار العربية الأخرى المغربية والشرقية .

وهكذا التحقت مراكش فعلاً بموكب هذه الحركة ، وغدا نضالها موسوماً بها وهي ما تزال قوية التصميم في هذا النضال الى ان يتحقق هدفـه العربي القومي ، وهو متحقق ان شاء الله لانه منبثق مـــن شعب عربي ابي ضد الظالمين البغاة ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون !

١٢

سياسة اسبانيا الباغية في مراكش الشمالية

وتتمة للكلام نقول ان المنطقة الشمالية التي تعرف بالريف والتي نكبت بالاسبان قاست وما تزال تقاسي ما قاسته شقيقتها الجنوبية من الافرنسيين ، سواء في عهد الملكية او الجمهورية او الديكتاتورية ، حيث سار الاسبان عـلى غرار فرنسا في الروح والمنهج ومحاولة هدم الكيان وفي التنكيل والقمع والاستثمار ، وكل ما

هنالـــك أنهم تأخروا في السير الحثيث بسبب الثورة الريفية الكبرى التي كانت إمتداداً للنضال القائم ضدهم قبل النكبة الافرنسية حيث كانوا يحتلون بعض اقسام البلاد منذ امد غير قصير .

ولقد كان الريفيون لا يهدأون في هـذا النضال ، واتسم في اوائل القرن الحاضر بسمة حرب عصابات تعرف بالثورة الجبلية ؛ وكانت تشتد حتى يبلغ عدد المشتركين فيها احياناً الألوف العديدة ، وتشغل عشرات الألوف من الجند الاسباني وتستنفد جهود اسبانيا وأموالها وتكبدها اعظم الخسائر .

حرب الريف بقيادة الامير الخطابي

وظل الأمر كذلك الى ان برز الامير عبد الكريم الخطابي عام ١٩٢٠ فانضوى تحت لوائه وزعامته جميع العصابات ، وانقلبت الحالة من ثورة عصابات وإزعاج الى حرب رسمية هجومية ، وأخذ الجيش الريفي الباسل يتقدم في جميـــع الميادين ، والقوى الاسبانية تنهار امامه مع تفوقها العظيم في العدد والعـدد ، ولم تنته سنة ١٩٢٤ حتى اصبح معظم المنطقة تحت سيطرته ولم يبق في يد الاسبان الا بعض المدن الساحلية مثل مليلا وسبته ، وكانت اخباره تصل الى المشرق فتهزه هزاً لما كان يرافقها من أخبار البطولة والانتصارات التي سجلت اعظم المفاخر للنضال العربي في هذا القسم من الوطن العربي الكبير .

وقد اعلن الامير جمهورية الريف وانتخب رئيساً لها ، وأخـذ يمارس سلطانه كذلك . وثار الرأي العام الاسباني ضد الحرب وأخـذ الجيش الاسباني يتمرد ، واضطر بريمودي ريفيرا رئيس اسبانيا الى حبس النبض في صدد الصلـح فاشترط الامير جلاء القوات الاسبانية عن جميع ما تحت إحتلالها بما في ذلك سبته ومليلا . وعلمت فرنسا بالأمر فجن جنونها من احتمال جنوح إسبانيا الى الصلح عـلى اساس هذا الشرط او في نطاقه خشية استفحال أمر الامير وامتداد حركته التحريريه الى سائر مراكش ؛ فضغطت على اسبانيا من جهة وسارعت من جهة اخرى الى إرسال جيوشها واساطيلها لشد عضدها . وهكذا غدا الامير يواجه قوى دولتين ؛ وصمد مع ذلك نحو سنتين اخريين يبدي مع جيشه من ضروب البسالة والتحمل والمقاومة

ما لا يزال ماثلاً في الاذهان ، حتى اذا كان عام ١٩٢٦ كان قد نفد ما في يده من زاد وعتاد ومعدات ، وكانت دسائس الافرنسيين وذهبهم خاصة يلعب دوره مما ادى الى خذلان الامير من قبل انصار اقوياء فلم يكن بد من الاستسلام لفرنسا التي وعدته بالرعاية ، ثم نكثت فنفته مع أسرته الى جزيرة ريونيون النائية الموبوءة رغم احتجاجه . وظل في منفاه البغيض الى سنة ١٩٤٧ حيث استسنح فرصة نقله الى منفى افرنسي فنزل الى بور سعيد بحركة بارعة واعلن التجاءه الى مصر وملكها فكان له فيهما الملجأ الكريم .

- ١٣ -

مصادرة الاراضي وتوزيعها

ومنذ انتهاء الحرب الريفية اخذت اسبانيا تفرغ لتنفيذ مناهجها الاستعمارية . وقد تمثلت هذه المناهج في كلمة مأثورة لأول مندوب سام اسباني حيث قال: سوف لا نرتكب الغلطة التي ارتكبها اجدادنا مع مسلمي الاندلس فألقوا بهم في البحر بل ان خطتنا معهم ستكون حازمة حاسمة بحيث نرغمهم على ان يلقوا هم بأنفسهم في البحر . . !

ولقد دشن الاسبان سياستهم بحصار منطقة نفوذهم وتطويقها ثم تقسيمها الى مقاطعات وإحاطة كل مقاطعة بسياج من حديد ، ثم سيطروا على الادارة المدنية ، ونظموا حملة انتقامية ضد جميع الذين ساهموا في الثورة من قريب او بعيد فصادروا املاكهم واعدموا الكثير منهم وسجنوا وعذبوا من وقع في ايديهم وشردوا باقيهم . ثم سنوا قوانين الامتيازات العنصرية ونزع ملكية الاراضي وطلبوا من خليفة الملك اصدار مراسيم لاقرار قوانينهم فامتنع ثم توفي فجأة، وخلفه ابنه وكان قاصراً فأنشأوا مجلسا صورياً للوصاية واستصدروا ما شاؤوا من المراسيم ، وكان من فحوى تلك القوانين نزع ملكية ساحات واسعة من اخصب الاراضي وضمها الى الممتلكات الاسبانية واحتكار جميع منابع الثروة في البلاد ومنحها للشركات الاسبانية ، ثم فتحوا ابواب البلاد لمتعطليهم ومتبطليهم وطلاب الثروة منهم فأخذوا يزحفون

ويستلمون من السلطات الاراضي المنزوعة والمساعدات المالية ، وقدم فيمن قدم عدد كبير من الرهبان والقساوسة ، فمنحتهم السلطات المساعدات الكبيرة باسم المؤسسات الكنيسية ، واخذوا من ناحيتهم في محاربة الاسلام والعروبة في مختلف مجالاتها .

الادارة

ومع ان الاتفاق الافرنسي الاسباني نص على قيام حكومة مراكشية برئاسة الخليفة تتمثل فيها السلطات وتصدر عنها الاوامر والقوانين فإن هذه السلطات تضاءلت حتى صارت عدماً وقام الى جانبها ثلاث سلطات او بتعبير اصح ثلاث حكومات إسبانية ؛ وهي حكومة المندوب السامي وحكومة الحماية وحكومة النقابات .

ففي الاولى دائرة بمثابة رئاسة الوزارة واخرى بمثابة وزارة الخارجية وثالثة بمثابة وزارة الحربية ورابعة بمثابة وزارة العدلية . وفيها امانة السر العام الحماية التي هي صلة الوصل بين دوائر المندوبية ودوائر الحماية . وفوق كل هذا هيأة استشارية تضع الخطط العامة لسياسة اسبانيا في المنطقة تتألف من القساوسة وغلاة المستعمرين العسكريين والمدنيين .

وفي الثانية تشكيلات مماثلة تسمى بالنيابات ؛ منها نيابة الامور الأهلية التي هي بمثابة وزارة الداخلية ، ونيابة الامور المالية ونيابة الاشغال العامة والمواصلات ونيابة الاقتصاد ونيابة المعارف .

وهيأة النقابات — وهي الادارة الثالثة — تضم نقابات العمال والزراع والتجار والملاك والموظفين ، وتسيطر على البلديات والغرف الزراعية والتجارية . وهي اسبانية اللحم والدم وهمها توفير العمل واسباب الراحة والنجاح للمهاجرين الاسبان.

والرؤساء والموظفون في هذه الحكومات الثلاث الذين يعدون بالالوف العديدة اسبانيون يتناولون نفقاتهم من خزينة المنطقة . ويبدو الهول في هذا إذا ما لوحظ ان مساحة المنطقة هي نحو عشرين الف كيلو متر مربع وسكانها نحو مليون، وهي بالنسبة إلى المنطقة الشمالية واحد من خمس وعشرين مساحة وواحد من تسعة سكاناً .

السلطات المراكشية

اما السلطات المراكشية فتتألف من حكومة فيها رئاسة وزارة ووزارات عدلية واوقاف ومديريات املاك ومعارف وبيت مال ومن ادارات تابعة لها في انحاء المنطقة . غير انها مسلوبة من كل سلطة فعلية ، ولا تباشر عملاً ولا تنجز امراً إلا وفق ما تقترحه نيابة الامور الاهلية وتوافق عليه . ولم تكتف اسبانيا بذلك وبحكوماتها الاسبانية الثلاث بل ملأت دوائر الحكومة المراكشية المركزية وتوابعها بعدد كبير من الموظفين الاسبان وجعلتهم كل شيء فيها .

الموظفون الاسبانيون

وقد بلغ عددهم عام ١٩٤٦ (٣٩٣٤) بينما لم يتجاوز عدد الموظفين المراكشيين خمسة آلاف . والأغرب والابشع ان الموظفين الاسبان يشغلون مختلف الوظائف سواء في ذلك الخطير والحقير ، بل ان عددهم في بعض الوظائف الحقيرة يزيد زيادة كبيرة على عدد المراكشيين . . فقد كان عدد سعاة البريد في العام المذكور (٨٧) منهم (٧١) اسبانياً ، وعدد سائقي السيارات الرسمية (٨٠٩) منهم (٧٧١) اسبانياً وعدد التراجمة (٤٦) منهم (٢٨) اسبانياً وعدد المساحين (٥٧) جميعهم اسبان وعدد حراس الغابات (١٢٧) منهم (٦٨) اسبانياً وعدد موظفي مصلحة التلفون (٩٤) منهم (٩٣) اسبانياً وعدد راكبي الدراجات النارية (٢٦) منهم (٢٤) اسبانياً وعدد الممرضين (١١٦) منهم (١١٣) اسبانياً .

الميزانية

وقد بلغت ارقام ميزانية النفقات لعام ١٩٤٦ وهي من وضع الاسبان مئتين واحد عشر مليوناً من البسيطات (والبسيطة تعدل نحو نصف شلن) ينفق منها على الادارات الاسبانية وموظفيها والموظفين الاسبان في دوائر الحكومة المراكشية والمدارس المخصصة لأبناء الاسبان أكثر من ثمانين في المئة منها .

التعليم

وسياسة التجهيل نافذة بأبشع مظاهرها. فالمدارس الحكومية المخصصة للمراكشيين لا تستوعب أكثر من اربعة في المئة من الذين هم في سن التعليم منهم حيث يوجد فيها نحو سبعة آلاف في حين أن عدد الذين هم في سن التعليم يزيد عن مئتي الف! وليس من هذه المدارس إلا مدرسة ثانوية واحدة غير كاملة؛ هذا فضلاً عن المنهج الاسباني الذي تسير عليه هذه المدارس والذي يهدف في الدرجة الاولى الى محاربة اللغة العربية والتقاليد الاسلامية. أما المدارس الحكومية المخصصة لأبناء الاسبان فانم اتعد بالعشرات منها الابتدائي ومنها الثانوي ومنها الفني، وتستوعب ٨٥٪ ممن هم في سن التعليم منهم. وقد وضعت العراقيل في طريق الذين يتوقون الى ارتياد معاهد العلم في أوروبا أو في المشرق العربي؛ حتى إنه لم يتخرج طول مدة حكم الاسبان من المراكشيين إلا طبيبان واربعة محامين ومهندس واحد؛ وكان ذلك بطريق التهريب إذا صح التعبير. كذلك وضعت العراقيل المتنوعة في طريق المحاولات التي يحاولها المراكشيون في سبيل سد شيء من ثغرة التعليم الواسعة.

الاهمال الصحي

وقد اهملت وسائل الصحة إهمالاً فظيعا. فليس في المنطقة إلا ثلاثة مستشفيات وفي حالة رديئة وبائسة جداً؛ فضلاً عن سيطرة الرهبان الاسبان على إدارتها سيطرة تامة. وليس في المنطقة كذلك مستوصفات صالحة ولا وسائل إسعافية ناجعة في مكافحة الأمراض المحلية والأوبئة.

السياسة الاقتصادية

وقد سار الاسبان على سياسة اقتصادية استهدفت السيطرة على جميع صادرات المنطقة وواردتها سيطرة تامة. فغدت المنطقة سوقاً للمنتوجات الاسبانية دون مزاحم، وحوربت الصناعات المحلية المراكشية أشد حرب، ووضعت العراقيل في

طريق كل نشاط مراكشي زراعي أو صناعي أو تجاري حتى إنه ليس هناك فلاح مراكشي يمارس زراعته بالآلات الحديثة ؛ وحصرت الامتيازات والشركات والمناجم والمعادن بالاسبانيين فتحكموا في خيرات المنطقة وثروتها ومعادنها وتجارتها وصناعتها وسائر مرافقها .

المستعمرون الاسبان

ولقد بلغ عدد المهاجرين الاسبان في المنطقة نيفاً ومئة الف وزاحموا المراكشيين في كل ميدان ، ومنحوا متنوع المنح والامتيازات . وقد بلغ ما صار في حوزة المزارعين منهم نحو ثلاثة ملايين دونم من أجود الأرض وأخصبها ، نزعت من يد العرب بمختلف الوسائل ، وقد أمدوا بالقروض والامتيازات المتنوعة التي استطاعوا بها الاستقرار والاثراء وإنشاء جيد الحقول والبساتين ؛ وهذا فضلا عما انتزعته السلطات الاسبانية من أراضي المناضلين والأوقاف الواسعة وألحقته بأملاك الدولة والتي تستثمر منه ما تستثمر وتقطع منه ما تشاء للمزارعين الاسبان . ومن الطريف أن المهاجرين الاسبان زاحموا المراكشيين حتى في المهن والمشاغل الحقيرة كمسح الاحذية وكنس الشوارع مثل ما زاحموهم في الوظائف الحقيرة كالسعاة والبوابين والمراسلين الخ .

وتستند اسبانيا في تنفيذ سياستها الباغية وتوطيد سيطرتها الشديدة الى حكم الارهاب المؤيد بثمانين الفاً من الجند موزعين توزيعاً دقيقاً وعشرين الفاً من البوليس المنظم بطريقة الغستابو .

السياسة البربرية

ومع أن إسبانيا لم تصدر ظهيراً مثل ظهير البربر الذي أصدرته فرنسا في المنطقة الجنوبية فانها طبقت السياسة البربرية تطبيقاً دقيقاً ؛ فأسست نيابة في قبائل الريف وأطلقت يدها في تطبيق تلك السياسة . وقد أخذت هذه تتحكم في دنيا القبائل ودينها وتقاوم الدروس الدينية والمدارس القرآنية وتحول دون الاتصال بينها

وبين أبناء المدن وتحارب اللغة العربية وتشجع على إحياء اللهجات البربرية والعودة إلى التقاليد الجاهلية دون الشرع الاسلامي الذي تدين به هـــذه القبائل وتطارد الذين يتجولون بينهم من أبناء المدن وكثيراً ما تلقيهم في غياهب السجون ، ولا تسمح بالتجول إلا لمنافقي مشايخ الطـــرق والدين ومشعوذيهم الذين يسيرون في الاتجاه الذي توجههم فيه . أما المبشرون المسيحيون والرهبان فلهم كامـل الحرية بالتجول والتبشير بالنصرانية بين هذه القبائل والتهجم على الاسلام ونبيّه .

- ١٤ -

استئناف النشاط الوطني

ومع ما كان من أثر كارثة استسلام الأمير عبد الكريم وانتهاء مقاومته فان الريف لم يلبث قليلا حتى أخذ يستأنف نشاطه الوطني والسياسي والثقافي في سبيل الدعوة الى المقاومة وتحقيق الأماني الوطنية والحقوق السياسية وتلافي التقصير من ناحية الثقافة العربية والاسلامية . ولم تكد سنة ١٩٣٦ تأتي حتى أصبحت الحركة الوطنية حركة شعبية عامة .

حركة فرانكو

غير أنها اصطدمت بالحرب الاهلية الاسبانية ، حيث اتخذ فرانكو منطقة الريف قاعدة لحركاته . ولما احتج الخليفة والهيئات الوطنية على ذلك اعتقل الطاغية عدداً كبيراً من رجال الحركة كما وضع الباقين تحت المراقبة العسكرية ومنعهم مـــن مغادرة بيوتهم وحرم عليهم أي نوع من أنواع النشاط السياسي أو الثقافي ، وجند كثيراً من أبناء المنطقة بالقوة ليحاربوا في صفوفه ! وقد ذهب منهم أربعون الف ضحية في هذه الحركة .

ولما تم الفوز لفرانكو تظاهر مدة ما بحسن النية والرغبة في تحقيـــق بعض المطالب الوطنية ، وأوصى مندوبه الجديد بحسن السلوك مع الخليفة ، وأغدق الوعود للمراكشيين ؛ فاغتنم الوطنيون الفرصة وأنشأوا حـزب الاصلاح ، وأقبل الناس

على الانتساب إليه حتى غدا قوة عظيمة . وتقدم رجاله يطالبون استناداً الى الوعود ومظاهر النية الحسنة بتغيير الحالة القائمة وإلغاء الحكم المباشر الارهابي وإعلان الحكم الذاتي في المنطقة . وإلى هذه الفترة تعود تلك الدعايات التي انتشرت لصالح عهد فرانكو وتصويره كصديق للعرب والمسلمين راغب في الأخذ بأيديهم وصلاح شؤونهم .

على أن رجال الاستعمار في إسبانيا والمنطقة الذين أخذوا يتخوفون من عواقب هذه الحرية التي تمتع بها المراكشيون في هذه الفترة وما يمكن أن ينالوه ، ويرون في ذلك خطراً يهدد النفوذ الاسباني استطاعوا إقناع فرانكو بخطل هذه السياسة ، فأمر مندوبه بتغيير أساليبه فاستطاع هذا بالاغراء والرشاوى أن يثبط الحركة ويفرق الصفوف ولكن هذا لم يكن كافياً في نظر أولئك الاستعماريين لأن الخليفة كان قد سار شوطاً غير يسير في طريق الاصلاح الحكومي والثقافي إغتناماً للفرصة السانحة ، فسعوا حتى يُبدل المندوب برجل عسكري يمكن من وقف هذا السير بالقوة والصرامة .

اثناء الحرب العالمية الثانية

ونشبت الحرب العالمية الثانية وظهرت ميول فرانكو نحو المحور وأحب أن يغتنم فرصة انتصارات هتلر وانهيار فرنسا ليحل محلها في الشطر الثاني من مراكش ويستعد لذلك ، ومع أن الظروف لم تواته فانه أرسل سنة ١٩٤١ مندوباً جديداً بتعليمات شديدة كان من نتائجها الغاء الاحزاب الوطنية ، ومصادرة الحريات ، وتشديد مظاهر الارهاب البوليسي ، فاكتسحت البلاد موجة من الارهاب ، وأخذ الموظفون الاسبان واستعماريوهم يستغلون هذا الجو ابشع إستغلال بالنهب والسلب والرشاوى والمصادرات والمطاردة ، فكانت محنة قاسية انصبت على رؤوس السكان الذين كانوا يظنون أنهم أوشكوا أن يحصلوا على بعض حقوقهم ومطالبهم .

مراسيم التحكم والارهاب الجديدة

ولقد انتهج المندوب الجديد سياسة قائمة على التفريق والتنكيل والتوهين ، وسار في هذه السياسة خطوة عملية جديدة حيث طلب من الخليفة المصادقة على أربعة

قوانين يرفع أحدها ضريبة الأتوث على المراكشيين إلى ثلث التركة ، ويخول ثانيها إدارة الحماية حق التصرف المباشر في الاطيان والعقارات ويرفع ضريبة الاملاك الى ثلث الدخل ، ويحدد ثالثها المساحة المبنية لسكن الاسرة المراكشية ويفرض على التي تشغل مساحة أوسع من المحدد أن تسكن معها غيرها ، ويقيد رابعها رصيد التاجر المراكشي بما لا يزيد عن عشرة الاف بسيطة أي نحو مئتي جنيه ويمنعه من التعامل بأكثر من ذلك في وقت واحد . وثار الخليفة على هذه القوانين قائلا إنها جنون إداري وطغيان لا يعرف له مثيل في تاريخ البشر وأبى التوقيع عليها . ولكن المندوب لم يبال وعبأ جيشه وحاصر مدن المنطقة وقراها وأخذ ينفذ منهجه الجديد بالقوة والطغيان ، وعمد إلى الاراضي الزراعية فنزع ملكية أحسنها وضمه إلى ممتلكات الدولة الاسبانية واستقدم عدداً كبيراً من المهاجرين الاسبان ووزع عليهم هذه الاراضي بعد أن أمدهم بقروض من الخزانة المراكشية . وبعد ذلك تصدى للتعليم فمسخ ما بقي له من صورة باهتة وأخضع التعليم الحر على ضعفه الى رقابة يرأسها أحد قواد جيشه كما أخذ يشجع المؤسسات الكنيسية ويعمل على نشرها في جميع أنحاء المنطقة ، وأعقب ذلك بسياسة بربرية رسمية حيث قسم المنطقة الى مقاطعات عربية وأخرى بربرية وأخضع الاخيرة للعرف الجاهلي ومنع سكانها من تعلم اللغة العربية !

ولقد طارد هذا الطاغية مدة حكمه رجال الوطنية وصادر صحفهم وأقفل أنديتهم وحرم عليهم الاجتماعات وفرض رقابة صارمة على البريد والمطبوعات ، ومنع السفر الى الخارج والتنقل في الداخل . وظل هذا الكابوس الثقيل جاثماً الى سنة ١٩٤٥ حيث بدل المندوب بأخر نتيجة للشكاوى والصراخ ولا سيما صراخ بعض رجال الحركة الوطنية الذين استطاعوا الافلات الى مصر ورفع أصواتهم الى العالم والى هيأة الامم ...

المظاهرات والقمع

وقد كان يظن أن اسبانيا ستقلع عن سياسة الطغيان بعد انهيار المحور ، ولكن الحوادث خيبت هذا الظن حيث سار المندوب الجديد على منهج سلفه بل وزاد

لديه ، حيث سير في سياسة توسيع نطاق الهجرة ونزع ملكية الاراضي . وطرق الخليفة باب فرانكو فلم يفز بطائل ، وأخذ المنهج الجديد طريقه الى التنفيذ، فأخذ احرار المنطقة الذين هم في الخارج يثيرون الضجة في البلاد العربية واروقة الجامعة واوساط العالم الغربي معاً فلجأت السلطات الى خطة الانتقام من الذين هم في منطقتها من رجال الحركة فأعلنت حالة الطوارىء والحصار وأخذت تطاردهم وتتهيأ لضربهم الضربة القاضية . وفي ٢٨ آب من سنة ١٩٤٦ نظم حزب الاصلاح مظاهرات سلمية في مدن المنطقة بسبيل الاصلاحات العاجلة ، فكانت فرصة للتنكيل اغتنمتها السلطات وأخذت تشتد بالقمع والقسوة فكانت اصطدامات عنيفة قتل وجرح فيها الكثيرون ، واحتج الخليفة وانذر بوخيم العاقبة . ولكن السلطات لم تعبأ واستمرت في خطتها الباغية واخذت تدبر المؤامرات ضد الخليفة وزعماء الحركة .

ومايزال الموقف يسير في هذا السبيل المظلم الذي تسجل اسبانية الفرانكية به من العار ما سجله اصحاب العهود السابقة وما سجلته فرنسا ، وما هو موغل في الظلم والبغي ايغالاً لا يكاد يصدق صدوره من اوحش الامم واقساها قلباً وتكشف زيف الدعاية المضللة عن فرانكو وعهده وحسن نياته نحو العرب .

قوة الحركة الوطنية وشمولها

غير ان هذا كله لم يثبط عزم المراكشيين حكومة وشعبا عن المقاومة وقد أصبحت الحركة الوطنية حركة شاملة يساهم فيها الجميع حتى الذين سبق لهم ان تعاونوا مع السلطات بحسن نية . وهي حركة منظمة تنظيما دقيقاً هدفها استقلال البلاد ووحدتها والالتحاق بقافلة الحركة العربية العامة التي أخذت تتسم بها بما ينشئه أحرار الريف من الصلات بالحركة العربية المشرقية ورجالها ومنشآتها. ولقد اتقدت الشعلة فلن تنطفىء باذن الله حتى تدور على الباغي الدوائر .

ومما يجدر ذكره أن ملك مراكش وخليفته في منطقتي الاحتلال متضامنان مع الحركة الوطنية التي تهدف الى ذلك الهدف القومي ؛ وهذا مما يجعل الامل اقوى في الفوز .

خاتمة

— ١ —

صلة بغي فرنسا بالحركة العربية

وسبق البغي الافرنسي على المغرب العربي ليقظة الروح القومية ونشاط الحركة العربية الحديثة في المشرق العربي ، وخاصة في البـــلاد التي ظلت مرتبطة بالدولة العثمانية الى آخر الحرب العالميـــة الاولى قد يسوغ القول انه لم يكن مناوأة في أصله للحركة العربية التي سجلت بعثها العملي الجديد عقب اعلان الدستور العثماني ، وخاصة في بلاد الشام والعراق . غير ان المغرب العربي هو الساحة الطبيعية التي تكمل ساحة الحركة العربية على اعتبار امتداد الوطن العربي الكبير اليها على ما قلناه في مطلع الجزء الاول ، وأن من الطبيعي ان يعد كل عائق في سبيل تواصل هذه الساحة مناوأة لتلك الحركة من حيث المبدأ .

ولقد حرصت فرنسا اشد الحرص على بقاء المغرب معزولاً عن تيار هذه الحركة وضربت بينه وبين الشرق ستاراً حديديا كثيفاً منعت النفوذ اليه او منه ، وخاصة بعد اليقظة القومية في الشرق وما كان بسبيلها من حركات وطنية ونضالية . ولم يقتصر هذا المنع على حركة دخول المغاربة الى الشرق ودخول المشارقة الى الغرب بل شمل كذلك مظاهر الحركة الفكرية والسياسية في الشرق من صحف وكتب ونشرات وإرتياد معاهد العلم الديني والمدني ، بل لقد شمل الحج حيث لم يكن يسمح للمغاربة احياناً بأدائه ، وحيثما كان يسمح لبعضهم كان يحتاط لأن يكون المسموح لهم من الانصار والموالين وتحت اشراف وظفين عرب مخلصين للسلطات الافرنسية فضلاً عن تقييد السماح بقيود مالية وغير مالية تجعله ضيق النطاق جداً . فكانت في ذلك مناوأة من حيث الواقع كذلك لتلك الحركة كما هو واضح ، هذا فضلا عن ما في ما انتهجته فرنسا من نهج استعماري في التجهيل والافقار والتنكيل والارهاب ومحاربة الثقافة العربية ومحاولة هدم الكيان القومي وتبديـــل وجه المغرب العربي ولسانه وكيانه من مناوأة للعروبة ومقوماتها على كل حال .

موقف فرنسا من قضايا العرب وصلته بالمغرب

ولقد كانت فرنسا في ما سارت عليه من خطط في سوريا ولبنان تفكر دائماً في المغرب العربي ودرجة تأثير خططها فيه سلباً وإيجاباً. وقد تكررت الاشارة إلى هذا على لسان رجال فرنسا قبل الحرب العالمية الاخيرة وفي اثنائها وبعد انتهائها وخاصة في ظروف الازمات التي كانت تعصف في سوريا ولبنان، كما كانت تنظر بنظر التجهم والغيظ الى ما اخذ يبدو من الحركات التجاوبية في بلاد المشرق العربي نحو المغرب العربي، لما كان يتسرب من اخبار البغي والقمع والنضال في اقطار المغرب ثم لما كان من نشاط أحرار هذه الاقطار وحركاتهم ودعوتهم على منابر الشرق العربي وفي أوساطه ومجالاته بعد الحرب؛ حتى لقد وصل التجهم الافرنسي هذا الى ان جعل الحكومات الافرنسية والصحافة الافرنسية تقف من القضايا العربية موقف العداء والتعطيل، وكان آخر موقف لها في هذا الباب موقفها من الحركة اليهودية، ثم موقفها من قضية ليبيا ومناصرتها ايطاليه وحرصها على عودة سلطانها عليها، وطمعها في قسمها الجنوبي فزان حرصاً على ابعاد عدوى الاستقلال والحرية عن المغرب، مما يعد مظهراً طبيعياً لتيار الحركة العربية الحديثه وشمولها العرب على اختلاف اقطارهم، ومما يدخل موقف فرنسا منه في باب مناوأة الحركة العربية العامة بطبيعة الحال.

بطولة وصبر رجال الوطنية المغربيين

وقصص تمكن احرار المغرب من اختراق ذلك الستار الحديدي ونشاطهم في الاوساط المشرقية والعالمية تنطوي في الحق على بطولة رائعة؛ حيث كان منهم من يسير ماشياً عبر الصحراء المهلكة مئات الاميال معرضاً نفسه للهلاك بالجوع والمرض والتعب والافتراس، وقد كان بعضهم استطاع في اثناء احتلال تونس من قبل المحور ان ينتقل لأوروبا فكانت له الفرصة الذهبية للبقاء حراً خارج هذا الستار، ولم يكونوا ذوي ثروة ولم يتمكنوا من جلب مال يساعدهم، ولم يف المشرق العربي بواجبه في ذلك، فصبروا صبر الابطال وفنوا في حركاتهم ونشاطهم القومي اعجب

الفناء وأروعه . وما كان من حركة دعائية نشيطة لفتت ابناء المشرق اكثر من ذي قبل الى المغرب وقضاياه بعد الحرب الاخيرة هو أثر مبارك من آثار حركة هذا العدد القليل الشجاع الصابر الزاهد الذي استطاع اختراق ذاك الستار الكثيف ويضاف الى هذا ما بدا من ثنايا هذه الحركه من فهم تام للحركة العربية الحديثة واندماج فيها ، وانتشار الشعور والوعي فيها بين المشتغلين بالحركة النضالية والوطنية في المغرب العربي سواء منهم من اخترق الستار او بقي في ميدان النضال والكفاح مما يدل عليه كثرة التردد والتجاوب في صدد هذه الحركة من مختلف الانحاء المغربية ورجالات المغرب عامة ، بحيث يصح ان يقال ان المغرب العربي هو داخل فعلا في نطاق هذه الحركة وأهدافها ، وان احراره ومناضليه ورجالاته ينشطون في هذا النطاق .

التقاء الحركة العربية المغربية والمشرقية في ساحة واحدة

وهكذا يلتقي القائمون بالحركة القومية العربية في المشرق معهم في ساحة العمل القومي المشترك ، وتكمل حدود الساحة التي كانت مقسومة بالستار الحديدي الكثيف ، وتصبح الحركة العربية منتظمة نظريا وعملياً جميع ساحة الوطن العربي الكبير الممتدة من الخليج العربي وبحر الهند شرقاً الى مضيق جبل طارق والبحر الاطلانطي غرباً .

ومن الجدير بالذكر كمظهر من مظاهر ذلك ما بدا من رجال الحركة القومية لمغربية من اهتمام لحركة الجامعة العربية ورغبة ملحة باندماج المغرب العربي فيها منذ سير المشاورات الاولى بسبيلها حيث كانت البرقيات والعرائض تتوالى محتجة عاتبة ومعلنة للرغبة في الاندماج في هذه الحركة اسوة بفلسطين ، بل لقد بدا ذلك الاهتمام وهذه الرغبة من رؤساء المغرب الأعلين فضلا عن كبار الزعماء ومختلف الهيئات ، ثم ما أخذ يتوالى على الجامعة بعد قيامها من مراجعات واقتراحات من هيئات المغرب ورجال حركتها بسبيل قضاياهم وتقرير تعويلهم عليها واعتبارها جامعتهم ايضاً . ولقد تجاوبت الجامعة معهم منذ البدء في ذلك نتيجة للشعور العربي الذي ينتظم رجال الجامعة وشعوب دولها بوحدة الحركة

العربية وشمولها ، فاحتوى ميثاقها تسويغ اشتراك ممثلين للبلاد العربية الاخرى التي لم يكن في امكانها التوقيع على الميثاق والاشتراك في الجامعة كدول ، وكان المعني به في هذا التسويغ المغرب العربي في الدرجة الأولى كما احتوى كذلك ملحقاً خاصاً كان المغرب العربي هو المعني به ايضاً في الدرجة الأولى هذا نصه :

« نظراً لان الدول المشتركة في الجامعة ستباشر في مجلسها وفي لجانها شؤوناً يعود خيرها وأثرها على العالم العربي كله ولأن أماني البلاد العربية غير المشتركة في المجلس ينبغي له ان يرعاهـــا وان يعمل على تحقيقها فإن الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية توهي مجلس الجامعة عند النظر في اشراك تلك البلاد في اللجان المشار اليها في الميثاق بأن يذهب في التعاون معها الى أبعد مدى مستطاع وفيما عدا ذلك بألا يدخر جهداً لتعرف حاجاتها وتفهم امانيها وآمالها وان يعمل بعد ذلك على صلاح أحوالها وتأمين مستقبلها بكل ما تهيؤه الوسائل السياسية من أسباب . »

ثم أخذ هذا التجاوب يشتد حتى لم تكد دورة من دورات مجلس الجامعة تخلو من بحث في القضايا المغربية واقرار قرارات ما في صددها وإرسال المذكرات المتنوعة بسبيلها والوقوف موقف التأييد والاحتجاج والاستنكار والوساطة حيث اقتضى ذلك حتى غدت هذه القضايا من صميم أعمال الجامعة وامانتها العامة

- ٢ -

المؤتمر المغربي في القاهرة ومداه

ولقد طرأ عاملان مهمان قوّيا حيوية ونشاط احرار المغرب ورجال حركته النضالية والوطنية . أولها المؤتمر المغربي الذي عقد في القاهرة في مطلع عام ١٩٤٧ ، فقد كان اجتمع في هذه العاصمة العربية الكبرى عدد غير يسير من احرار الأقطار المغربية الثلاثة ، ينتسبون الى مختلف الهيئات والاحزاب الوطنية فيها ، وكان رجال كل قطر يجاهدون وينشطون في سبيل قطرهم دون تضامن وثيق كشأن اخوانهم في المشرق مع اشتراكهم في بلاء واحد وعدو واحد . فرأوا انه قد آن لهم ان يشكلوا جبهة واحدة للعمل التحريري داخل البـــلاد وخارجها ، فعقدوا مؤتمرهم

المذكور الذي ضم مندوبي مختلف الاحزاب والهيئات الوطنية في الاقطار المغربية الثلاثة ، ورمزت حفلتا افتتاحه وختامه الى ما قلناه من اندماج الحركة الوطنية التحريرية المغربية بالحركة المشرقية وانهيار السد القائم بين المغرب والمشرق حيث دعي فريق كبير من رجال الاقطار العربية المشرقية لهاتين الحفلتين وخطب بعضهم فيها منوهاً بالحركة المغربية التحريرية العربيـــة والتقائها في ساحة واحدة بالحركة المشرقية التحريرية ، وبالتواثق الذي يجب ان يسود رجال هذه الحركة في المشرق والمغرب لما تمثلانه من وحدة اللغة والتاريخ والعادات والتقاليد والروح والدين والمصالح المتنوعة والاتصال الارضي الذي لا يفصله فاصل طبيعي او عنصري على ما ذكرناه في مطلع الكتاب .

وكان من نتائج هذا المؤتمر ان تقرر (اولا) ميثاق سياسي قومي واحد يقوم على الاسس التالية :

١ - بطلان معاهدتي الحماية المفروضتين على تونس ومراكش وعدم الاعتراف بأي حق لفرنسا في الجزائر

٢ - مطالبة الحكومات المغربية والهيئات الوطنية باعلان استقلال البلاد .

٣ - المطالبة بجلاء القوات الأجنبية عن بلاد المغرب جميعها .

٤ - رفض الانضمام الى الاتحاد الافرنسي في اي شكل من أشكاله .

٥ - اعتبار ايام احتلال الجزائر (٥ حزيران) وفرض الحماية على تونس (١٢ مايس) وفرض الحماية على مراكش (٣٠ مارس) ايام حداد في أقطار المغرب .

٦ - تعزيز الكفاح بالداخل والخارج لتحقيق الاستقلال والجلاء .

وثانياً ميثاق تنسيقي واحد يقوم على الاسس التالية :

١ - ضرورة الاتفاق بين الاحزاب الوطنيـة داخل كل قطر اما باندماجها في حزب واحد او بتكوين جبهة وطنية منها .

٢ - إحكام الروابط بين الحركات الوطنية في الاقطار الثلاثة بحيث تهدف الى الاتفاق على غاية واحدة هي الاستقلال التام والجلاء وتكوين لجنة دائمة من رجال الحركات الوطنية مهمتها توحيد الخطط وتنسيق العمل للكفاح المشترك والعمل على توحيد المنظمات العمالية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في الاقطار الثلاثة وتوجيهها توجيهاً قومياً والوقوف جبهة واحدة عند حدوث أزمة في أي قطر منها .

و(ثالثاً) الطلب من الجامعة التي تمثل دور المشرق العربي :

١ – إعلان بطلان معاهدتي الحماية المفروضتين على تونس ومراكش وعدم شرعية احتلال الجزائر وتقرير استقلال هذه الاقطار وقبول ممثلين عنها في مجلس الجامعة .

٢ – عرض القضية المغربية على الهيئات الدولية واستعمال كل ما لدى الجامعة من وسائل لمساعدة اقطار المغرب على تحقيق ميثاقها .

٣ – ارسال لجنة تحقيق الى اقطار المغرب .

٤ – تعيين ممثلين للدول العربية المشرقية في اقطار المغرب العربي .

٥ – العمل على نشر الثقافة العربية في بلاد المغرب وحل مشكلة الطلاب المغاربة الذين يلجأون الى المشرق بقصد اتمام دراستهم وتذليل العقبات التي تقوم بطريقهم.

و(رابعاً) تكوين مكتب واحد للحركة التحريرية المغربية يضم ممثلي مختلف الأحزاب في أقطار المغرب الثلاثة يطلق عليه اسم « المكتب المغربي العربي » ويصدر عنه كل نشاط وتوجيه واتصال وشكوى ومراجعات مما يتصل بالحركة الوطنية النضالية في الاقطار المغربية .

وهكذا استطاع رجال الحركة القومية المغربية ان يقوموا بعمل لم يقم به اخوانهم المشارقة ولو نظرياً حتى الذين كانوا امام عدو واحد كفلسطين والاردن ومصر والعراق .

وقد ردد رجال الحركة الوطنية والاحزاب في داخل البلاد المغربية صدى هذه القرارات وأيدوها وأظهروا استعدادهم للتضامن فيها. ومنذئذ اشتدت روح النضال والحركة في مختلف الساحات بحيث صارت حركة التحرير المغربية قوية ملموسة الآثار في الأوساط العربية والعالمية على السواء .

زعامة الامير عبد الكريم

أما العامل الثاني فكان تحرر الامير عبد الكريم الخطابي بطل الريف الذي كان في أسر فرنسا على ما اشرنا اليه في مناسبة سابقة . فقد توجه أحرار المغاربة اليه ليتولى زعامة الجبهة النضالية الموحدة وقبل الرجاء فأصبح للحركة التحريرية المغربية جبهة واحدة وزعامة واحدة ، واشتدت تلك الحركة قوة واثراً

المصاعب والآمال

ومع اننا لا نجهل عمق الروح الاستعمارية الباغية التي تسيطر على رجال فرنسا وساستها على اختلاف الوانهم ، وما سوف تلقاه الحركة التحريرية المغربية من المصاعب في سبيل تحقيق أهدافها وأهداف الحركة العربية التي غدت مندمجة في قافلتها ، سواء في احكام الستار الحديدي المضروب بين المغرب والمشرق او في الاسراع في فرنسة المغرب ثقافياً وسياسياً حتى اصبحت نغمة الاتحاد الافرنسي المغربي تشتد ارتفاعاً وقوة وتخطو خطوة عملية بالنسبة للجزائر التي أوخلت في الحلف الاطلانطي كجزء اتحادي من فرنسا ، أو في التوسع في أساليب الدّس والتفرقة والقمع والتنكيل ومكايدة عرب المشرق في قضاياهم المعقدة . ومع أننا لسنا نجهل الى هذا ضعف البنية العربية عامة في المشرق والمغرب نتيجة لكابوس الجهل والتغلب والاستعمار الذي ظل جاثماً على صدريهما امداً طويلا وما هذا الضعف من آثار اليمة سياسية وخلقية ووطنية واقتصادية واجتماعية وشخصية وعامة في كيان العرب وحركتهم ، ولسنا نجهل أخيراً ما يحتاج اليه العمل التحريري المغربي من وسائل عظيمة ليس من السهل تدارکها ، فان كل هذا لا يجعلنا نفقد الامل في نجاح الحركة التحريرية المغربية عامة ، ويجعلنا نعتقد انه ليس في وسع فرنسا مهما بطشت وغدرت واحتالت ودست ووضعت العراقيل وسدت المنافذ ان تقضي عليها وتطفىء شعلتها المتقدة ، فهناك شعب ابي قوي المراس مستمسك بعروبته وتقاليده اشد الاستمساك يزيد عدده على العشرين مليونا ، ومن ورائهم اخوان لهم يزيدون على الخمسين مليونا لابد من ان يتضامنوا معهم عاجلا أو آجلا في سبيل تحررهم وتحقيق اهداف الحركة العربية العامة في الجناح الغربي ، وليست السنين القليلة التي نرجو ان يتحقق هذا فيها بالشيء المهم في اعمار الامم وحركاتها النضالية القومية ، ولن يبقى القوى قوياً ، ولن يبقى الضعيف ضعيفاً . ولا تحسبن الله غافلا عما يفعل الظالمون وسيعلمون اي منقلب ينقلبون .

وقعت بعض أغلاط مطبعية صححنا بعضها في مابلي
وتركنا بعضها الى فطنة القارىء

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٠	٧	وتحويلها	وتمويلها
٦٦	٢١	قطيعة	قطعية
٦٩	٢٥	النية	البنية
٧٨	٧	الرهن	الوهن
٨٣	٩	الافرنسية ان تسلم	الافرنسية أمر أن تسلم
٩٥	٩	تجريمية	تجريحية
٩٦	١	ينجموا	يجنحوا
١٠٨	٢	وبالتضامن الذى	وبالتضامن مع لبنان الذي
١٠٩	٦	هددها	هدؤها
١٣٥	٦	ينقل	ينتقل
١٤٢	١٣	قراراً	فوراً
١٤٩	١٥	وسطر	وسط
١٥٧	٧	فيك اليوم يوم	فيك يوم
١٧٥	٥	الاهاون	الاهلون
١٨٠	١	سارلة	رسالة
١٨٦	١٥	قضاء	قضاة
١٨٩	٧	متخمة	ضخمة
٢٠١	١٤	الماصلى	المصالي
٢٣٠	٢	جهرة	جهرة